الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الجامعات والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي

معهد العلوم الإسلامية

قسم الحضارة الإسلامية

محاضرات في مقياس:

السيرة النبوية

موجهة لطلبة السنة الأولى جذع مشترك علوم إسلامية - السداسي الأول

إعداد: د/ الجباري عثماني

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/2021-2022م

مدخل إلى دراسة السيرة النبوية

1 – السيرة النّبوية ماهيتها ومصادرها

أ- **تعريف السيرة لغة واصطلاحا:** السيرة لغة: من مصدر سير، سَارَ تَسْيَارا ومَسِيرا، يقولون استار بسيرته: أي استن بها واقتدى وسلك طريقته ومشى على خطته. وتعني السيرة: السُّنة والطريقة والهيئة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره. والسيرة اصطلاحًا تعني قصة الحياة وتاريخها، يقال قرأت سيرة فلان: أي تاريخ حياته، والسيرة النبوية هي دراسة حياة النبيّ ﷺ، وأخبار أصحابه على الجملة، وبيان أخلاقه وصفاته وخصائصه ودلائل نبوته وأحوال عصره؛ أي تاريخ حياته ﷺ ومجموع ما ورد لنا من وقائعها.

ب- أهمية السيرة ومكانتها:

- السيرة النبوية هي السبيل إلى فهم شخصية الرسول ﷺ النبوية، من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها، للتأكد من أنه ﷺ لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته، ولكنه قبل ذلك رسول أيّده الله بوحي من عنده.

- تجعل السيرة النبوية بين يدي الإنسان صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، يتمسك به ويحذو حذوه، فقد جعل الله تعالى الرسول محمدًا ﷺ قدوة للإنسانية كلها، حيث قال سبحانه: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾ [الأحزاب:21].

- السيرة النبوية تعين على فهم كتاب الله، فكثير من آيات القرآن الكريم إنما تفسرها وتجليها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ ومواقفه منها.

- السيرة النبوية صورة مجسدة نيّرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه، فهي تكوّن لدى دارسها أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية، سواء ما كان منها متعلقًا بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق.

- السيرة النبوية نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم، يستفيد منه المعلم والداعية المسلم. فقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم معلمًا ناجحًا ومربيًا فاضلاً، لم يأل جهدًا في تلمس أجدى الطرق الصالحة في التربية والتعليم، خلال مختلف مراحل دعوته.

- من خلال السيرة نتعرّف على جيل الصحابة الفريد، الذي كان صدى للقرآن، وكان التطبيق العملي لحكم الله أمرًا ونهيًا.

ت- مزايا السيرة النبوية:

تجمع السيرة النبوية عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورية لعلماء الشريعة والدعاة والمهتمين بالإصلاح الاجتماعي، وفي النقاط الآتية نجمل أبرز مزايا السيرة النبوية.

- أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل أو عظيم مصلح، فقد وصلت إلينا رسالته صلى الله عليه وسلم عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا، مما لا يترك مجالا للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى.

- إن حياة رسول الله ﷺ واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها وتفاصيلها، منذ زواج أبيه بأمه آمنة إلى وفاته ﷺ؛ مما يجعل سيرته عليه الصلاة والسلام واضحة وضوح الشمس، كما قال أحد النقاد الغربيين: إن محمدا ﷺ هو الوحيد الذي وُلد على ضوء الشمس.

- أن سيرته ﷺ واقعية تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا؛ ولهذا ظلت سيرته المثل النموذجي الإنساني الكامل في نفسه وأسرته وبيئته.

- أنها سيرة شاملة لجميع النواحي الإنسانية في الإنسان؛ فهو كأب، وزوج، وقائد، ورئيس دولة، ومربّ وصديق، وداعية، وسياسي؛ يجعله قدوة صالحة لكل هؤلاء.

- أن سيرته ﷺ تعطي الدليل الذي لا ريب فيه، عن صدق نبوته ورسالته؛ لأنها سيرة إنسان سار بدعوته من نصر إلى نصر، ودعا الناس إلى ربه في تأدب ورفقة وخشية ورأفة ورحمة دون خوارق ومعجزات وآيات، يقول تعالى: ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين**﴾[العنكبوت: 50].

ث- مراحل كتابة السيرة النبوية:

ث-1- **المرحلة الشفوية**: وهي المرحلة التي كان المسلمون في القرن الأول يتناقلونها أثناء الحديث عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتحدثون عنها في المنابر والاجتماعات العامة والخاصة. وقد كانت المغازي النبوية محطّ عناية المسلمين بتعليمها لصغارهم، فعن أحدهم قال: كنا نُعلِّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلِّم السورة من القرآن.

ث-2- **مرحلة التدوين الجزئي**: قام بها بعض التابعين، فدوّنوا جوانب من السيرة والمغازي وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث كل طرف اهتم بالواقعة أو الحادثة التي شارك فيها والده أو قريبه، فهذا اهتم بغزوة بدر وأحد، وآخر اهتم بأحداث الهجرة، وغيرها، وهكذا تألّف من مجموعة هذه الأخبار والروايات ما يُعرف بكتب السيرة الأصلية في القرن الأول وبداية الثاني.

ث-3- **مرحلة التأليف والتصنيف**: وهي مرحلة التأليف والتصنيف عند تابعي التابعين؛ ممن تخصّص في هذا العلم وبرع فيه وألّف مصنفات كثيرة، استوعبت تفاصيل دقيقة عن حياة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام وسيد البشر في جميع أطوار حياته.

ج- مصادر السيرة النبوية:

إن مصادر السيرة النبوية التي اعتمدها سائر الكتاب على اختلاف طبقاتهم محصورة في المصادر الآتية:

ج-1 - **القرآن الكريم**: إن أوثق وأصدق وأصح ما كُتب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، هو ما أقتبس من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود قبل الصديق الودود، والقرآن يقصّ علينا جميع مناحي السيرة النبوية، وطرفا من حياته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة،

فيذكر لنا يتمه وفقره﴿**ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى**﴾[الضحى: 5-6]، وتحنثه(تعبده)، كما يذكر لنا شؤونه بعد النبوة من هبوط الوحي عليه، وتبليغه إياه، والعروج به، وعداوة الأعداء، وهجرته، وغزواته. وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه عليه الصلاة والسلام: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[القلم: 4]. كل ذلك تراه مذكورا في القرآن ببيان واضح، وأسلوب متين رائق.

ج-2- **السنة النبوية الصحيحة**: المصدر الثاني من مصادر السيرة، كتب الحديث، وهي كتب روت لنا من أقوال النبيّ ﷺ، وأفعاله، وأحواله. ومن تلك المصنفات الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة. ويضاف إليها موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد. ويأتي البخاري ومسلم في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق. وقد خصصت كتب الحديث أقساما وأبوابا لجهاده، ومغازيه، وجوانب كثيرة من سيرته وحياته عليه الصلاة والسلام، غير أن مادتها غير مرتبة حسب التتابع الزمني للأحداث؛ لأن عناية هذه الكتب تنصرف إلى أقواله وأفعاله من حيث أنها مصدر تشريع، لا من حيث هي تاريخ مدوّن.

ج-3- **كتب المغازي والسير**: لقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام باسم "المغازي"، وتعني لغويا غزوات الرسول ﷺ وحروبه؛ ولكنها في الحقيقة تناولت عصر الرسالة بكامله. ولقد استعملت لفظة "السيرة"؛ للتدليل على حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان محمد بن شهاب الزّهري أول من استعمل هذا اللفظ ثم تلاه ابن إسحاق وابن هشام، كما أن لفظة المغازي تستعمل عموما كمرادف للفظة السيرة. وتأتي هذه الكتب من حيث الدقة بعد القرآن الكريم، وكتب الحديث الشريف. ومما يعطيها قيمة علمية كبيرة، أن أوائلها كتبت في وقت مبكر جدا في جيل التابعين، حيث كان جيل الصحابة موجودين ولم ينكروا عليهم ذلك.

ومن أبرز الذين اشتهروا بهذا العلم من الطبقة الأولى نجد: "أبَان بن عثمان بن عفان" رضي الله عنه(ت بين 95-105ه/ 713-723م)، مدني، ومحدث له ميل إلى دراسة المغازي، والظاهر أن سيرته التي جمعت لم تكن إلا صحفا فيها أحاديث عن حياة نبي الله عليه الصلاة والسلام، وأيامه. و"عروة بن الزبير بن العوام" وهو مدني(ت94/ 712م) وهو فقيه ومحدّث مشهور، يعتبر مؤسس دراسة المغازي، ألف كتابا في المغازي تناول فيه جوانب مختلفة من حياة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن معاصري عروة "شرْحبيل بن سعد" وهو مدني(ت 123ه/ 740م). ووهب بن منبه، وهو يمني (ت110ه/ 728م). ومن الجيل الثاني قام ثلاثة من العلماء بتنمية دراسة المغازي وتوسيعها وهم: الإمام "محمد بن مسلم بن شهاب الزهري"، وهو مكي (ت124ه/ 741)، أوّل من دوّن في السيرة، وهي أول سيرة أُلّفت في الإسلام، وسيرته من أوثق السير وأصحها، ويعتمد عليه ابن إسحاق كثيرا.

ومن الجيل الثالث(تابعي التابعين)، من رجال مدرسة التاريخ المدنية التي ركّزها الزهري والمعروفة بـ "مدرسة المغازي"، نجد مُؤرّخين لهما أهمية خاصة، وكلاهما من تلاميذ الزهري، هما موسى بن عقبة الأسدي، وهو مدني (ت141ه/ 758م)، ومحمد بن إسحاق المُطّلبي، مدني (ت151ه/ 768م) إمام في المغازي، ومن هذا الأخير انتقلنا إلى

علماء هم مؤرخون أولا، ثم محدثون من الدرجة الثانية، ألّف كتاب "السير والمغازي"، يتألف من ثلاثة أقسام: المبتدأ، والمبعث، والمغازي. ومن رواة السيرة عن ابن إسحاق "زياد بن عبد الله البكائي"(ت182ه)، وأصل سيرة ابن إسحاق مفقود، ولم يعثر إلا على قطع قليلة. وهناك محمد بن عمر الواقدي(ت207/ ه823م)، فكتابه المغازي أو غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام وسراياه يقتصر على الفترة المدنية. وجاء من تلاميذ الواقدي "محمد بن سعد"(ت230/ 844م)، فصنّف "كتاب الطبقات الكبرى"، يتألف من عدة أجزاء أفرد منها الجزأين الأولين لسيرة النبي ومغازيه وغيرهم كثير.

وأفضل كتاب أُلّف في السيرة، ونال رضا جمهور العلماء، هو لـ "عبد الملك بن هشام الحِميري المَعافِري"(ت213 أو 218ه)، والمعروف بسيرة ابن هشام، وهو تهذيب واختصار لسيرة ابن إسحاق تلقاها عن البكائي، فليس من مؤلف بعده إلا كان عيالا عليه؛ مما يعطي سيرته توثيقا كبيرا.

ج-4- **كتب الشمائل**: الشمائل، جمع الشِّمال؛ وهي الطبائع والخلق. وهي الكتب التي قصد أصحابها التركيز على ذكر الصفات الخَلقية والخُلقية للنبي صلوات الله وسلامه عليه، وعاداته، وفضائله، وسلوكه القويم في الليل والنهار. وأهمها كتاب "الشمائل" للإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت279ه). ومن ذلك كتاب "أخلاق النبي وآدابه" لعبد الله بن محمد الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت369ه)، وكتاب "الأنوار في شمائل النبي المختار" للحسين بن مسعود البغوي (ت516ه) وغيرهم.

ج-5- **كتب الدلائل**: جمع دِلالة بالفتح والكسر، وهي الكتب التي ألفها أصحابها بقصد جمع المعجزات التي ظهرت على النبي عليه الصلاة والسلام الدالة على نبوته، اشتملت كتب الحديث على أبواب في علامات النبوة ودلائلها، لكن أقدم من أفردها "محمد بن يوسف الفرياني"(ت212ه) في كتابه "دلائل النبوة"، ثم على بن محمد المدائني(ت225ه) في كتابه "آيات النبي"، و"داود بن علي الأصبهاني"(ت270ه) في كتابه "أعلام النبوة"، وأحمد بن الحسين البيهقي (ت458ه) في كتابه "دلائل النبوة" وغيرهم كثير.

ج-6- **كتب التاريخ العام**: وهي التي تُعنى بالتأريخ للأمم والدول بشكل عام قبل الإسلام وبعده، خصّصت جزءً مهما من مؤلفاتها لدراسة سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وفي مقدمتها يأتي تاريخ الإمام "أبي جعفر الطبري"(ت310ه) "تاريخ الأمم والرسل والملوك". وكتاب "فتوح البلدان" لأحمد بن يحي البلاذري (ت279ه)، و"تاريخ اليعقوبي" لأحمد بن جعفر (ت292ه)، ومن المؤرخين القدامى كذلك "علي بن الحسين المسعودي" (ت346ه) ألف كتابا سماه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، والعلامة "علي بن محمد بن الأثير" (ت630ه) ومؤلفه "الكامل".

ج-7- **كتب تاريخ المدن**: وهي الكتب التي اهتمت بتاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل الإسلام وبعده. وأقدم ما ذكر في هذا الباب كتاب "تاريخ مكة" لمحمد بن عبد الله الأزرقي(ت250ه)، و"تاريخ مكة" للفاكهي، محمد بن

إسحاق(ت280هـ)، و"الدرة الثمينة في أخبار المدينة" لابن النجّار (ت642هـ)، و"تاريخ المدينة" لمحمد بن الحسن المخزومي، توفي قبل المائتين للهجرة. وهناك من كتب في تاريخ المديتين، ومن أولئك "أبو عبد الله الزبير بن بكار"(ت256هـ) له كتابا سماه "أخبار المدينة" وآخر "أخبار مكة" وغير هؤلاء كثير.

وهناك مصادر أخرى تكميلية تكمل معالم الصورة وتملأ الثغرات، ككتب الأدب واللغة، فهي تلقي الضوء على الحياة الثقافية ومستوى المعيشة وأنواع الملابس والأطعمة والعادات وغير ذلك من جوانب الحياة في عصر السيرة. وكذا كتب الجغرافية التاريخية التي تدرس تضاريس الجزيرة العربية؛ التي دارت فيها أحداث السيرة النبوية، وتبين مستوى المعيشة وحاصلاتها الزراعية، وتحدد المسافات بين الأماكن، وتوزيع العشائر.

2- **الجزيرة العربية قبل الإسلام المجال والسكان:**

لما كانت بلاد العرب مهد الدين الإسلامي ومنبع الدولة الإسلامية، وجب أن نعرف شيئا عن وصفها الجغرافي، وعن شعوبها، وحالتها السياسية والاجتماعية والدينية قبل ظهور الإسلام.

أ- **جغرافيا الجزيرة العربية:**

كلمة العرب تنبئ عن الصحاري والقفار، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أُطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أُطلق على قوم قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطنا لهم. وأما عن موقعها فهي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، وهي أكبر جزيرة في العالم، ويبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائة ميل، ومساحتها حوالي ألف ألف ميل مربع. يحيط بها الماء من ثلاث جهات؛ لذلك أطلق العرب على بلادهم اسم جزيرة العرب، بحيث يحدّها البحر الأحمر غربا، وشرقا الخليج العربي(الخليج الفارسي)، وجنوبا بحر العرب(المحيط الهندي)، وشمالا بلاد الشام، والبعض يذكر أنها تمتد شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وتحتل جزيرة العرب موقعا طبيعيا وجغرافيا هاما، إذ أنها تربط بين قارات ثلاث: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا. وأما من الناحية الحضارية للعالم قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينئذ: الحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية. ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة العربية بحسب طبيعتها خمسة أجزاء:

- **تِهامة:** وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن، وسُميت بهذا الاسم لشدة حرّها وركود ريحها؛ من التهم وهو شدة الريح وركوده. وتسمى الغوْر أيضا؛ لانخفاض أرضها عن أرض نجد.

- **الحجاز:** ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السَّرَاة؛ وفيه المدينتان المقدستان: مكة والمدينة.

- **نجد:** وهو الجزء المرتفع الذي يمتد بين اليمن جنوبا وبادية السماوة شمالا، ويسير شرقا إلى صحراء البحرين، وسمي نجدا لارتفاع أرضه، فيه صحراوات وجبال.

- **العَروض**: وهي تتصل بالبحرين شرقا، وبالحجاز غربا، ويشمل اليمامة وعمان والبحرين، وسُمي عروضا؛ لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

- **اليمن**: ويمتد من نجد إلى المحيط الهندي جنوبا والبحر الأحمر غربا، ويتصل به من الشرق حضر موت والشحر وعمان.

ب- أقوام العرب:

الجنس الذي يسكن شبه الجزيرة يسمى الجنس العربي، وهو أحد الأجناس الساميّة، ويتكلم اللغة العربية، إحدى اللغات السامية، ولكنها أكثر محافظة على خصائص اللسان السامي، ويرجع ذلك لطبيعة الحياة الانعزالية لسكان الجزيرة، بالمحافظة على الأنساب والأحساب. وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

ب-1- **العرب البائدة**: وهم الذين بادوا ودرست آثارهم وانقطعت أخبارهم ومن أشهر قبائلهم: عاد، وثمود، وطَسْم، وجَديس، وأَمَيْم، وجُرهم الأولى، والعمالقة وغيرها. وهذه القبائل اضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر.

ب-2- **العرب العاربة(القحطانية)**: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعرب بن يشجب بن قُحطان، وتسمى بالعرب القحطانية، ويُعرفون بعرب الجنوب، يسكنون اليمن وما حواليها. ومنهم ملوك اليمن، وملوك مَعين، وسبأ وحِمير. ومن أشهر قبائلهم: جرهم، ويعرب. ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين وهما: كهلان وحمير.

ب-3- **العرب المستعربة(العدنانية)**: نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ويقال لهم بالعرب المتعربة، سموا بذلك؛ لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية. ولما نزلت جرهم القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وأمه، تزوج منهم وتعلم هو وأبناؤه العربية؛ فسمّوا بالعرب المستعربة، وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة. ومن أهم ذرية إسماعيل(عدنان) جدّ النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها.

ث- ديانات العرب قبل الإسلام:

كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم عليه السلام على الحنفية السمحاء، منذ نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًا مما ذكروا به، حتى جاء "عمرو بن لُحيّ الخزاعي" رئيس خزاعة، الذي زار الشام لطلب الشفاء لسقم أصابه فبرئ منه، فرأى العماليق بالشام يعبدون الأصنام، فاستحسن ذلك وظنه حقا؛ فاستوهبهم واحدا منه وجاء به إلى مكة، فنصّبه في الكعبة وهو هُبل، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه؛ وانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام والأوثان في العرب، وصارت فيهم بعد أن كانت في قوم نوح. ورغم غيّهم وضلالهم بقيت فيهم من عهد إبراهيم بقايا يتمسكون بها: من تعظيم الكعبة، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة...

وكان إلى جانب الوثنية في بلاد العرب نحل وديانات أخرى، منها الصابئة ويعبد أصحابها النجوم والكواكب، وقد انتشرت في بلاد اليمن وحران وأعالي العراق. وعرفت العرب المجوسية والزندقة وعبدة النار. وانتشرت اليهودية عند العرب قبل الإسلام واعتنقها البعض، حيث أقامت قبائل في اليمن، وكان لهم تجمع ضخم في يثرب وهم: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، الذين نزحوا من فلسطين بعد هجرتهم بضغط من الرومان في أواخر القرن الأول الميلادي. وكما كان للمسيحية انتشارا وحضورا في الشمال وبلاد اليمن في الجنوب، وقد دخلت بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية في القرن الرابع الميلادي؛ إلا أنها لم تجذب إليها أنصارا كثيرين منهم، ومن أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب نجران أصحاب الأخدود. على أنه لم يقدر لأي دين من هذه الأديان الفوز والغلبة في بلاد العرب، مع ذلك مهدت الطريق لظهور المصلح المنتظر وهو النبي عليه الصلاة والسلام.

ج- الحياة الاجتماعية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد. وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي. وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعته ومروءة وكرم ونحوها.

وأما عن وضع المرأة في المجتمع العربي، فكانت كَسَقط المتاع، إذ كانوا يجمعون بين الأختين في الزواج، ولم يكن للعرب حدٌّ محدود في للنكاح، ومنهم من له العشر من النساء. وقد بيّنت عائشة رضي الله عنها أنواع الأنكحة الفاسدة في الجاهلية(نكاح الاستبضاع، ونكاح التواطؤ، ونكاح البغايا)؛ روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك «فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم».

ويمكن القول، أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، الناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانـًا، وما كان من الحكومات فجُلُّ هِمتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها. ومن هذا الظلام الدامس والجهل الجارف؛ يضيء مصباح الدجى، والمؤيد بوحي السماء؛ ليكون ميلاده رحمة للعالمين.

محمد ﷺ من المولد إلى المبعث

1 – نسب محمد ﷺ:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – ويدعى شيبة – بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر – وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة– بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضَرَ بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان. هذا هو الصحيح المجمع والمتفق عليه في نسبه صلى الله عليه وسلم، وما فوق ذلك مختلف فيه، ويبلغ عدد الآباء في هذا السياق واحدا وعشرين أبـًا. ولا خلاف أن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإنما الخلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء، فمقلّ ومكثر، وكذلك من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام. وقد كان عبد الله أبو رسول الله ﷺ أصغر ولد أبيه، وهو والزبير وعبد مناف(أبو طالب)، بنو عبد المطلب لأم واحدة، وأمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

تدعى أسرته ﷺ بالهاشمية؛ نسبة إلى جده الثاني هاشم بن عبد مناف، كان هاشم موسرا وذا شرف في قومه وفضل، كانت قريش تُسميه الفيض لسماحته وفضله. تولى خدمة السقاية والرفادة لزوار بيت الله، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وأول من سنّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وقد مات بغزة من أرض فلسطين تاجرا. ووُلي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطّلب، وقد لقي بهذين المنصبين شيئا من المشقة، بحيث لم يكن له من الأبناء إلا الحارث، وكانت سقاية الحاج يؤتى بها منذ نضبت زمزم من آبار عدة مبعثرة حول الكعبة. وبينما هو على هذا رأى رُأيا كانت سبب الفرج بعد الكرب؛ حين أُمر بحفرها(زمزم) عندما كان نائما في الحجر، فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث، فحفر البئر وأخرج منه الغزالين من الذهب اللذان دفنتهما جرهم فيه حين خرجت من مكة؛ وعادت زمزم كما كانت عينا ثرّة يشرب منها الحجيج، وكان عبد المطلب يشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم، ويسقي أضياف الله، لذلك لُقِّب بالفياض؛ لجوده، وشيبة الحمد، لكثرة حمد الناس إياه.

ولما طالبته قريش بالمشاركة في بئر زمزم، ووجد عنة في مقاومتهم لعدم كثرة الولد لديه، فنذر لله إن رزقه الله عشرة من الولد، وبلغوا أن يحموه، أن يذبح أحدهم لله. فرزق عشرة من الأبناء وأراد أن يفي بنذره، فضرب القداح عند صنم هبل، وكان في جوف الكعبة، فخرج السهم على عبد الله أعز أبنائه، فأراد ذبحه لكن قريش منعته، وأشاروا عليه أن يستفتي كاهنة معروفة بخيبر، فذكرت له أن يقرّب عشرا من الإبل، ويضربوا عليه وعليها القداح، فكان السهم كل مرة يخرج على عبد الله حتى بلغ عدد الإبل مائة، فخرج السهم على الإبل فذبحوها؛ وعليه لُقّب المصطفى ﷺ بـ "ابن الذبيحين".

2- زواج عبد الله بآمنة:

كان عبد الله شابا، نسيبا، جميلا، وسيما، قوي البنيان، غاية الأماني، من الغيد الكواعب الحسان؛ أحسن من رُؤي في قريش، خرج يوما على نساء من قريش مجتمعات، فقالت امرأة منهن: يا نساء قريش، أيتكن تتزوج هذا الفتى فتصطاد النور الذي بين عينيه، فتزوجته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة من بني زُهرة، بعد أن خطبها والده من أبيها سيد بني زهرة وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا(جهة الأب) وموضعًا(أي جهة الأم). وبنى بها عبد الله، وبقي في بيت أبيها ثلاثة أيام على عادة العرب في ذلك، حتى كان اليوم الرابع انتقل إلى منازل بني عبد المطلب، وقد شاء الله أن تكون عشرة أيام هي عمر الحياة الزوجية في هذا الزواج المبارك.

3- ولادته ونشأته ﷺ:

تذكر آمنة بنت وهب حين حملت بابنها محمد ﷺ، أنها لم تر أخفّ ولا أيسر منه، ولم تجد له ثقلا كما تجد النساء. وأُوتيت وهي بين النائم واليقظان، فقيل لها: إنك حملت بسيّد هذه الأمة ونبيّها، وذلك يوم الاثنين، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: إذا وقع إلى الأرض فقولي: أُعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا أو أحمد. ورأت حين خرج منها معه نورا أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام، تقول آمنة: لما فُصل مني(تعني النبي) وقع على الأرض جاثيا على ركبتيه، معتمدا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب، فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء.

وُلد عليه الصلاة والسلام في فصل الربيع بعد الفجر الصادق وقبل شروق الشمس من يوم الاثنين باتفاق، لليلتين خلت من ربيع الأول، وقيل ثامنه، وقيل التاسع منه، وقيل عاشره، وقيل لثنتي عشرة منه. وقد ذهب العلامة المنصور فوري أن ميلاده ﷺ يكون في التاسع من ربيع الأول من عام الفيل؛ لأنه يوافق يوم الاثنين 20 أفريل سنة 571م. واختُلف أيضا في مكان ولادته من مكة، ففيه روايات متعددة: البعض يذكر في الدار التي في الزقاق المعروف بـ "زُقاق المولد" في شِعب مشهور بشِعب بني هاشم، وقيل في الدار التي عند الصفا، وقيل بعسفان. وكان صلى الله وعليه وسلم وحيد أبويه، وقد توفي والده قبل ولادته عن عمر ناهز 25 سنة. ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم محمدا.

وفي اليوم السابع احتفى الجدّ بالمولود الجديد – على عادة العرب – فنحر الذبائح وأقام الولائم، شكرا لله، وبهجة بالوليد الذي رأى في حياته حياة موصولة بابنه الغالي عبد الله، وقد شارك البيت الهاشمي في الغبطة بالوليد الجديد، فهذه ثُويبة الأسلمية جارية أبي لهب بن عبد المطلب لما بشّرت سيّدها بميلاد ابن أخيه محمد أعتقها؛ لذلك بعد موته كان يخفّف عنه من العذاب في ليلة من الأسبوع؛ فقد روى العباس بن عبد المطلب، أنه رأى أخاه أبا لهب في المنام بعد موته بسنة، وذلك بعد بدر، فسأله عن حاله، فأجاب أبو لهب: في النار إلا أن العذاب خفّف عني كل ليلة اثنين بماء أمصّه من بين أصبعي هاتين: السبّابة والإبهام، وذلك أني أعتقت ثويبة حينما أخبرتني بميلاد محمد ﷺ. وهذا رغم أذيّته الشديدة لرسول الله، وهلاكه على الكفر والشرك.

حاضنته بعد ولادته ﷺ، أم أيمن بركة الحبشية أَمَة أبيه، وأول من أرضعته من المراضع – وذلك بعد أمه بأسبوع – ثُويبة أَمَة عمّه أبي لهب. ثم استُرضع ﷺ في بني سعد بن بكر، وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي؛ ليكون أنجب للولد. روى ابن إسحاق قصة استرضاع حليمة لرسول الله ﷺ وذكر، بأن نسوة من بني سعد بن بكر حللن بمكة يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود المبارك ﷺ من نصيب حليمة بنت ذؤيب بن الحارث السعدية، وما رأت من بركته ﷺ ما قضت منه العجب بعد تسلمها له، إذ قال لها زوجها الحارث: يا حليمة، أما والله إني لأراك قد أخذت نَسَمة مباركة.

ووقعت لمحمد ﷺ وهو في بادية بني سعد، حادثة شق الصدر وغسله عندما كان طفلا في الرابعة من عمره، فقد روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، وانتزع منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره(مرضعة ولد غيرها) فقالوا: إن محمداً ﷺ قد قتل؛ فلحقوا به واستقبلوه وهو منتقع اللون". لقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة محمد ﷺ إلى أمه وجدّه عبد المطلب؛ لأن حليمة خافت عليه، ورغبت في إنهاء مسؤوليتها عنه رغم حبّها له وتعلقها به. وبقي ﷺ مع أمه إلى أن بلغ ست سنين، وفي إحدى الأيام توجهت به إلى المدينة؛ لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، ودفنت هناك، فحملته مولاته وحاضنته أم أيمن، وكفله جدّه عبد المطلب بمكة، ورقَّ له رِقّة لم تُعهد له في ولد. ثم توفي جدّه عبد المطلب وكان عمره ﷺ ثماني سنوات، فكفله شقيقُ أبيه أبو طالب بوصية من جدّه، وكان به رحيماً أيضا.

وقد وردت روايات تفيد عطف أبي طالب عليه وتعلقه به، فكان لا ينام إلا ومحمد ﷺ إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصّه بالطعام، ولا يأكل إلا عند حضوره، وإذا أكل محمد ﷺ مع عياله شبعوا ويفضلون من طعامهم، فيعجب أبو طالب ويقول: إنك لمبارك. كان الصبيان يصبحون رُمْصا شُعثا، ويصبح محمد ﷺ دهينا كحيلا. ويبدو أنه في فترة حضانة عمّه ساعده الفتى محمد ﷺ في رعي الغنم؛ ولعل ضيق حال أبي طالب هو الذي دفعه إلى العمل لمساعدته، فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «ما بعث الله نبيّا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

4– بَحِيرى الراهب ومحمد ﷺ:

لما بلغت سِنّه ﷺ الثانية عشرة، خرج مع عمّه أبو طالب في تجارة له إلى الشام، فتعلقت نفس ابن أخيه به، ورغب في مصاحبته؛ فرقّ له عمه، واستصحبه معه حتى وصل الرّكب إلى بُصرى من بلاد الشام، وكان بها راهب يقال له "بحِيرى" عنده علم بالكتب السماوية السابقة، وقد علم منها أنه قد آن مبعث نبي آخر الزمان وأنه من العرب. وقد جذب انتباهه إلى القافلة، عندما رأى غمامة تظلل شخصا منهم، فصنع لهم طعاما على غير عادته ودعاهم إليه، فلما حضروا صار يتفرّس فيه

- صاحب الصفة - ويتعرف على بعض صفاته، ثم تحايل حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه على صفته التي عندهم في الكتب، فأقبل على أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال ابني، قال بحيرى: وما ينبغي أن يكون أبوه حيا، قال أبو طالب: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا ما عرفت لَيبْغُنّه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده؛ فخرج به عمّه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

5 - شهوده ﷺ حرب الفِجار وحلف الفضول:

سميت حرب الفِجار؛ لأنهم فجروا واستباحوا الأموال والنفوس في الأشهر الحرم، التي حُرّم فيها القتال. كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وقيس عيلان وأحلافها، وقد شهدها المصطفى ﷺ وكان قد بلغ أربع أو خمس عشرة سنة. وسبب هذه الحرب، أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة بعث بقافلة إلى سوق عكاظ، وكان في حاجة إلى من يجيرها له، فجلس يوما وعنده البَرّاض بن قيس الكناني، وعروة بن عتبة الرّحال، فقال: من يجير تجارتي حتى تَبْلغ عكاظ، فقال البرّاض بن قيس: أنا أجيرها على بني كنانة، وكان البرّاض فاتكا خليعا خلعه قومه؛ لكثرة شرّه، قال النعمان: أنا أريد من يجيرها على النّاس كلهم، قال عتبة أنا أجيرها على الناس كلهم، فأخذ عروة القافلة فتربص به البراض وقتله غدرا، فوصل الخبر إلى قريش، واشتعلت الحرب بين قريش وأحلافها وقيس عيلان وأحلافه، دامت أربع سنين كاملة. وقد شهد محمد ﷺ بعض أيامها مع أعمامه، وقال: "كنت أنبل على أعمامي"؛ أي يجهز لهم النبل للرّمي.

وعلى إثر هذه الحرب وقع حلف الفضول أو المُطَيَّبين في ذي القعدة في شهر الحرام، تداعت إليه قبائل من بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم.. وسبب الحلف أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، ولكن لم يعطه الثمن ومطل به؛ فطلب الرجل من ينصره، فلم يجد أحدا في أول الأمر؛ فرقى جبل أبي قبيس، ونادى بأعلى صوته مستنجدا، وقال في ذلك شعرا. ولما سمع القوم اجتمعوا في دار "عبد الله بن جدعان"؛ وتعاهدوا على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم بمكة، ورد الفضول على أهلها. وقد وشهد النبيّ ﷺ يومذاك الحلف وهو في العشرين من عمره، قال الرسول ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا، ما أُحبُّ أن لي به حُمُر النَّعْم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

ومن نافلة القول؛ فقد كانت حياته ﷺ قبل البعثة حياة فاضلة شريفة، لم تعرف له فيها هفوة، ولم تُحْص عليه فيها زلّة، لقد شبَّ ﷺ عليه وسلم يحوطه سبحانه وتعالى بعنايته، ويحفظه من أقذار الجاهلية؛ لما يريده له من كرامته ورسالته، بحيث نزّهه عن المعاصي والموبقات، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذُبح على النّصب، ولا يحضر للأوثان عيدا، ولا احتفالا، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة، حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقـًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلمـًا، وأصدقهم حديثـًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رُئِى مُلاحيًا ولا مماريا؛ حتى سماه قومه الأمين.

6- محمد وخديجة بنت خويلد من الشراكة في التجارة إلى شريكة الحياة:

كانت خديجة رضي الله عنها سيدة تاجرة ذات شرف، ومال، وتجارة تبعث بها إلى الشام. وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة(أي، تقارضهم). ولما سمعت خديجة عن محاسن محمد ﷺ وأوصافه، وعلمت بصدقه وأمانته وحسن تدبيره، بعثت إليه بنفسها؛ وعرضت عليه أن يخرج في مال لها بالشام تاجرا، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له "مَيْسَرة"، فقبله محمد ﷺ منها، وخرج معه غلامها ميسرة حتى بلغ الشام. فنزلا في سوق بصرى تحت ظل شجرة قريبا من صومعة راهب يدعى "نَسطورا"، فاطلع الراهب على ميسرة، فقال: من هذا الرجل الذي تحت هذه الشجرة؟ فقال مَيْسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

وباع محمد ﷺ التجارة وابتاع، وعاد بربح وفير، وعاد ومعه غلام خديجة، ووصل الرّكب في الظهيرة إلى مكة، ولما دخل عليها محمد ﷺ أخبرها بخبر التجارة وما ربحت؛ فسُرّت لذلك سرورا عظيما، وخرج محمد ﷺ، وترك ميسرة يقصُّ على سيّدته من شأن سيّده محمد، من حديث الراهب عنه، ومن تلك الغمام التي تظلله من الحر وقت الهاجرة، وعن حسن معاملته، وأمانته، وعطفه. وحين سمعت خديجة بهذا؛ أرادت الزواج منه – رغم أنها رفضت من قبل هذا الزواج من أي من عظماء قريش وسادته – فأرسلت دسيسًا صديقتها نَفيسة بنت مُنيه إلى محمد تطلب يده للزواج، فقبل المصطفى ﷺ ذلك العرض. وحضر عليه الصلاة والسلام في عمومته، وزوجه أحدهم، وزوج خديجة عمّها عمرو بن أسد، وأصدقها عشرين بكرة، وتزوجها ﷺ وهو ابن خمسا وعشرين سنة، وخديجة بنت أربعين. وقد أنجبت منه ذكرين هما: القاسم وعبد الله(الملقب بالطيب والطاهر)، وأربع بنات وهن: زينب وأم كلثوم، فاطمة، ورقية، فأما القاسم وعبد الله فماتا قبل البعثة، وأدركت البنات الإسلام فأسلمن، ولم يتزوج رسول الله ﷺ على خديجة حتى ماتت، وكانت نعم الزوجة والصاحبة.

7- المشاركة في تجديد بنيان الكعبة:

لما بلغ ﷺ خمسا وثلاثين سنة، جاء سيل عارم فصدّع جدران الكعبة، وأوهن أساسها، وكان من قبل قد أصابها حريق بسبب امرأة كانت تجمِّرها، وقد أخذ السُّراق كنزها ولم تكن مسقوفة. وقد كانت رَضما فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ فأجمعت قريش على بنائها، واشترطوا أن لا يدخل في عمارتها إلا الطيّب من أموالهم، ولا يدخل فيها مال من بيع ربا، أو مهر بغي، ولا مظلمة أحد من الناس. وأول من بدأ نقض الجدران الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس وكانوا يهابون ذلك، ثم أخذوا في بنائها ورفعوها ثمانية عشر ذراعا، وجعلوا لها بابا واحدا ورفعوه؛ حتى لا يدخلها إلا من أرادوا.

وقد جعلت كل قبيلة تجمع على حدتها الحجارة وتبني، حتى بلغ البنيان موضع الركن(الحجر الأسود) اختصموا في وضعه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا وتواعدوا للقتال، فمكثت قريش أربع أو خمس ليال على ذلك، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا؛ وقد أشار عليهم أبا أمية بن المغيرة وكان عامئذ

أسنَّ قريش كلها، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم. ففعلوا؛ فكان أول داخل محمد بن عبد الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. ولما أخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: هلمّ إليّ ثوبا، فأُتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال لتأخذ قل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه فأخذه بيده ووضعه في مكانه، وأكملوا البناء بعد ذلك. وكان بناء قريش الكعبة بعد الفِجار بخمس عشرة سنة.

سيرته ﷺ المبعث إلى الهجرة

1- بين يدي النبوّة:

أ- إرهاصات نبوّته عليه الصلاة والسلام:

لقد بشّر الأنبياء السابقين بنبوته عليه الصلاة والسلام، وإن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون رسول الله ﷺ قبل مبعثه؛ مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل، قال تعالى:﴿**الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبا في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلّ لهم الطّيبات ويُحرّم عليهم الخبائث..**﴾[الأعراف، 157]. ومن إرهاصات نبوته ﷺ الرؤيا الصادقة؛ وهي أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة؛ حين أراد عز وجل كرامته ورحمة العباد به، أن لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. ومن العلامات، تسليم الحجر عليه ﷺ قبل النبوّة، قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن». وفي الثامنة والثلاثين من عمره ﷺ؛ حُبّب إليه الخلوة والتحنث(التعبد)، والانصراف إلى الخالق، فكان يخلو بغار حراء بجبل النور في رمضان من كل عام، حيث كان يرى الأنوار، ويسمع الهَواتِف، ويطعم من جاءه من الفقراء والمساكين، فإذا قضى جواره من شهره كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا، ثم يرجع إلى بيته، وكانت السيدة خديجة تعينه على هذه الخلوة، وتُعدُّ له الزاد والطعام، وكان رسول يرجع إليها في أثناء الخلوة؛ ليتعهدها، ويأخذ زاده، وقد مكث رسول على هذه الحال ستة أشهر.

ب- نزول الوحي:

لما بلغ عليه السلام سنّ الكمال وهي أربعون سنة، أرسله الله رحمة للعالمين، وكان ذلك في نهار يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رمضان الموافق 10 أوت 610م، جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء واستعلن له. قالت عائشة رضي الله عنها: فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطّني(ضمني وعصرني) حتى بلغ مني الجَّهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَّهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿**اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾[سورة العلق، 1-5]. وبعد نزول هذه الآيات الخمس رجع النبي عليه الصلاة والسلام وهو يرتعد من شدة الخوف، حتى أتى السيدة خديجة فقال: زمِّلوني زمِّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبرها بما جرى، وقال لها: "لقد خشيت على نفسي"؛ فقالت خديجة: كلا أبشر، والله ما يخزيك الله أبدا؛

إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ(الضعيف)، وتَكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وزاد البعض: وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة.

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل كان شيخا كبيرا قد عميَ، فقالت له خديجة: اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي عليه الصلاة والسلام مار رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله، أو مخرجيّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب(يلبث) أن توفي. وفتر الوحي عنه صلى الله عليه وسلم؛ وحزن لذلك وغدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد ﷺ إنك رسول الله حقا؛ فيسكن لذلك جأشه.

وقد أُختلف في مقدار فتر الوحي، فقيل ثلاث سنوات، وقيل أقل من ذلك، والراجح كما عند الخضري وأبو شهبة أربعون يوما، أو كانت ستة أشهر. وروي عنه عليه الصلاة السلام في شأن فتر الوحي: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه؛ حتى هويت إلى الأرض، فأتيت خديجة فقلت: زمّلوني، زمّلوني، دثّروني، وصبّوا عليّ ماء باردا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبّر، وثيابك فطهّر، والرِّجز فاهجر**﴾[المدثر، 1-5]. وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمي الوحي بعد وتتابع.

2- الدعوة الإسلامية المحمدية بمكة:

مرت دعوته عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام في المرحلة المكية بمرحلتين، الدعوة إلى الله سراً ودامت ثلاث سنوات، والثانية الدعوة جهرا، وباللسان فقط واستمرت إلى الهجرة.

أ- **مرحلة الدعوة السريّة**: أخذ النبيّ ﷺ يدعو قومه من أول ما نزلت عليه النبوة، ثلاث سنين مستخفيا، وكان طبيعيا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وألصق النّاس به. ومن السابقين الأوائل للإسلام نجد: أول من آمن به ﷺ من النساء، بل أول من آمن به ﷺ زوجه السيّدة خديجة رضي الله عنها، وأنها صدّقت الرسول ﷺ وآزرته وثبتته وخففت عنه، وهوّنت عنه أمر الناس. وأول من آمن من الرجال الأحرار، الأشراف، صديقه الحميم أبوبكر بن أبي قحافة التيْمي، والذي واساه بنفسه وماله، وأفضل الأمة بعد رسولها. وأول من آمن به من الصبيان ابن عمه، والمتربي في حجره علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وكانت سِنّه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وقد صار فيما بعد خَتَن رسول الله على ابنته السيدة فاطمة. وأول من آمن من الموالي، حِبُّه، ومولاه، ومتبناه: زيد بن حارثة الكلبي؛ الذي آثر رسول الله على والده وأهله. وأجابت أيضا حاضنته أم أيمن التي زوّجها لمولاه زيد. وأول من أسلم من العبيد، بلال بن رباح الحبشي مولى الطاغية أمية بن خلف، والذي صار فيما بعد مؤذن رسل الله عليه الصلاة والسلام. وكذلك سارع إلى الإسلام بنات رسول الله ﷺ، واقتدائهم بأمهن، قالت عائشة رضي الله عنها: "لمّا أكرم الله نبيّه بالنبوّة، أسلمت خديجة، وبناتهُ.

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلا محببا سهلا، ذا خلق ومعروف، دعا من يثق فيهم من رجال قريش فأجابه جمع منهم: عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف(كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسمّاه عليه السلام عبد الرحمن)، ومنهم سعد بن أبي وقاص، ومنهم طلحة بن عبيد الله. وممن سبقوا إلى الإسلام صهيب الرومي من الموالي، وعمار بن ياسر العنسي وأبوه ياسر وأمه سُمية. ومن السابقين الأولين عبد الله بن مسعود، كان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول ﷺ لا يحجب ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعية. ومن السابقين أيضا؛ أبو ذر الغفاري، وسعيد بن زيد العدوي وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، ولبابة زوج العباس، وعبيدة بن الحارث، وعثمان بن مظعون وأخوه قُدامة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي القرشي وغيرهم. كان هؤلاء يلتقون برسول الله ﷺ سراً، وإذا أراد أحدهم ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة؛ يستخفي فيها عن أنظار قريش. ثم لما أربى الذين دخلوا الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة، اختار لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام دار أحدهم، وهو الأرقم بن أبي الأرقم التي تقع على الصفا؛ ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلا وامرأة دخلوا في الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء، وممن لا شأن له بين قريش.

ب- **مرحلة التبليغ الجهرية**: بعد أن دعا رسول الله ﷺ للإيمان مستخفيا ثلاث سنين، أُمر عليه الصلاة والسلام، أن يصدع بما جاء من عند الله، وأن يُناديَ الناس بأمره، وأن يدعوهم إلى الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿**فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[الحجر، 94]. وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى:﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[الشعراء، 213]. فصعد عليه السلام على الصفا وبدأ يعدد أفخاذ قريش وقال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأن تقولوا لا إله إلا الله، فقال: أبو لهب: تبّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل تعالى في حقّه قرآنا يتلى قال جلّ وعز: ﴿**تبّت يدا أبي لهب وتبّ، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب، وامرأته حمّالة الحطب، في جيدها حبل من مسد**﴾[المسد].

لم يثن ذلك عن عزمه عليه الصلاة والسلام في التبليغ، وانطلق يدعو إلى الله تعالى ليلا ونهارا، سرا وجهرا. وكفار قريش في أول أمرهم غير منكرين لما يقول، بحيث إذا مرّ في مجالسهم يشيرون إليه: إن غلام بني عبد المطلب ليُكلّم من السماء، إلى أن عاب آلهتهم، وذكر آباءهم الذين ماتوا على الكفر، فانتصبوا لعداوته وعداوة من آمن معه، يعذّبون من لا منعة عنده أشد العذاب، ويؤذون من لا يقدرون على عذابه. وحدب(عطف) على النبي عليه الصلاة والسلام عمّه أبو طالب، ومنع الله عن رسوله به؛ لأنه كان شريفا معظما فيهم، وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه لما في ذلك من المصالح، التي تبدو لمن تأملها.

واشتد غيض الكفار على رسول الله ﷺ وصحبه، وشكوه لعمّه أبو طالب مرتين، وطلبوا منه أن يُخلّيَ بينهم وبينه أو يكفّه عما يقول، ولما لم يجدوا من عمه استجابة لمسعاهم؛ بل قال له: يا ابن أخي، اذهب وقل ما أحببت والله لا أسلمك؛ لهذا رأى رسول من المشركين كثير الأذى خصوصا إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله

جماعة سُمُّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين، وأولهم أبو جهل القرشي، قال يوما: إني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد رضختُ به رأسه، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف، فلما سجد رسول احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع، ورمى الحجر من يده، قالوا له مالك يا أبا الحكم؟ قال: لما دنوت منه عرَض علي فحل من الإبل، والله ما رأيت مثله قطُّ، همّ بي ليأكلني؛ فلما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال ذاك جبريل لو دنا مني لأخذه.

3 - **الهجرة إلى الحبشة:**

من الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين، وكانت **الهجرة الأولى** في شهر رجب من السنة الخامسة من المبعث، وهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة، خرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار. وهذا لما ذاقت مكة، وأوذي رسول الله، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: "إن بأرض الحبشة ملكا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه"؛ فخرجنا إليها - كما يقول أحدهم- أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنّا على ديننا ولم نخش منه ظلما، وكان أول من خرج عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وهي أول هجرة في الإسلام.

وفي السنة السادسة من مبعثه عليه الصلاة والسلام، أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فعزّ بإسلامهما الإسلام، وطلب عمر من رسول الله ﷺ أن يعلن صلاته ففعل، وقد أدرك الكفار كآبة كبيرة حينما رأوْا عمر أسلم؛ وكانوا قد أرادوا قتله.

وأما **الهجرة الثانية للحبشة**، فكانت بعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة؛ إذ لمّا بلغهم بإسلام قريش وسجود المشركين مع رسول الله عليه الصلاة والسلام عند قراءة سورة النجم وهي إشاعة كاذبة. ولما رجعوا إلى مكة؛ فلقوا من المشركين أشدّ مما عهِدوا، فأذن لهم رسول الله في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا، وثماني عشرة امرأة؛ فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار. ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي وبطارقته؛ ليسلم المسلمين، فرجعا شرّ رجعة ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة؛ لما رأى من المسلمين صدق نبوّة رسولهم عليه الصلاة والسلام. ولما سمعوا(المهاجرين) بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمانية.

وقد عزم الصدّيق رضي الله عنه وهو من القريبين من رسول الله ﷺ، الهجرة إلى الحبشة؛ حينما ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى. استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، وخرج رضي الله عنه مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين، لقيه "ابن الدُّغنّة" سيد الأحابيش، فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيّقوا عليّ، فقال: مثلك لا يُخرج، فوالله إنك لتزين العشيرة، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، أرجع فإنك في جواري؛ فرجع معه حتى إذا دخل مكة، فقال: يا معشر قريش إني قد

أجرت ابن أبي قحافة؛ قبلت قريش الجوار بشرط أن تكون عبادته في منزله، لكن النساء والصبيان والعبيد يقفون عنده إذا صلى وقرأ في فناء بيته؛ فذكرت قريش لابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا؛ فكان منه إلا أن خيّر الصدّيق بين الكف على ذلك أو ردّ عليه الجوار، فقال الصديق: أردُّ عليك جِوارك وأرضى بجوار الله. ولاقى بعدها الصديق ألوانا من الأذى من قِبل قريش.

4- صحيفة المقاطعة ونقضها:

يذكر ابن سعد في طبقاته، أنه لمّا بلغ قريشا فعل النجاشي لجعفر وأصحابه - من مهاجري الحبشة – وإكرامه إياهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل؛ مما كبُر ذلك عليهم وغضبوا من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأصحابه، وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ. وقد واجه أبو طالب مطالبة قريش بتسليم النبي عليه الصلاة والسلام ليقتلوه بالرفض، ثم لمّا رأى في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته؛ جمع بني هاشم وبني عبد المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ؛ فأجابوهم إلى ذلك كلهم مسلمهم وكافرهم حميَّة للجوار العربي، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة، إلا ما من أخيه أبا الحكم عمرو بن هاشم أبو لهب، فإنه فارقهم وكان مع قريش.

لهذا اجتمعوا وائتمروا بينهم(قريش)، أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على أن لا ينكحوهم ولا يبيعونهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم؛ فلما اجتمعوا في ذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصّحيفة في جوف الكعبة توكِيدًا على أنفسهم، وكان كاتب الصّحِيفة "منصور بن عكرمة"، ويذكر ابن هشام آخر ويزعم أنه "النّضْر بن الحارث"؛ فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلّ بعض أصابعه. وحصروا بني هاشم وبني عبد المطلب في شِعب أبي طالب ومن اتبعهم من المؤمنين، ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. واشتدّ وَجْد قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه، وضربوهم في كل طريق، وقطعوا عنهم المادة من الأسواق وكل اتصال. ففعلوا ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجَّهد الشديد.

لقد كانت قريش في أمر الحصار الاقتصادي والاجتماعي بين راض وكاره، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارها، وقد قام خمسة من أشراف قريش بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم: هشام بن عمرو العامري وهو أعظمهم في ذلك بلاء، وزهير بن أبي أمية - ابن عمّة الرسول عاتكة - والمُطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، واتفقوا على ذلك ليلا. فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال: يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة؛ فقال أبو جهل: كذبت، فرد عليه زمعة: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المُطعم صدقتما وكذب من قال غير ذلك، وقام إليها ليشقّها فوجد الأَرَضة قد أكلتها إلا بسمك اللهم.

وكان الله قد أطلع رسوله على ذلك، فذكر رسول الله ﷺ لأبي طالب: "يا عم، إن ربي قد سلّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان"؛ فقال أربك أخبرك بهذا؟ قال نعم، فخرج إلى قريش، وقال: إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبا دفعت لكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول عليه الصلاة والسلام؛ فزادهم ذلك شرا وعنادا وطغيانا.

ورغم الآيات الدالة على نبوته، لكن قريشا تمادت في غيّها واستعصت على رسول عليه الصلاة والسلام، وأبطأوا عن الإسلام، وأوغلوا في عداوة النبي وإيذائه وإيذاء أصحابه، دعا عليهم فقال: «اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف»؛ أصابتهم سَنَة(جدب وقحط) فحصّت كل شيء؛ حتى أكلوا الجيف والموتى، والعظام، حتى كان الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان في ناس من قومه يسأل رسول الله ﷺ أن يدعوا لهم ويناشده الرحم، فدعا لهم الرؤوف الرحيم، فكشف الله عنهم ما هم فيه، وقد أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾[الدخان، 10] إلى قوله تعالى: ﴿**إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون**﴾[الدخان، 15]. وبعدما كشف الباري جل وعز عنهم العذاب؛ فعادوا إلى الكفر.

5- عام الحزن؛ وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها:

لقد انجابت الغمة، وأزال الله الكربة عن بني هاشم والمطّلب والرسول والمؤمنين بشقّ الصحيفة الظالمة، وعادت الأمور كما كانت، ولكن حدث حادثان سبّبا للنبيّ ﷺ غاية الحزن:

أحدهما، موت عمّ النبي ﷺ وناصره، ومانعه من قريش أبي طالب بن عبد المطلب، وكان قد ألحّ عليه المرض فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر. وقيل في رمضان قبل وفاة السيدة خديجة بثلاثة أيام. ولما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبيّ ﷺ: "يا عمّ قل لا إله إلا الله أُحاجّ لك بها عند الله"، فقالا: أي أبا طالب، أترغب عن مِلّة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء: على ملة عبد المطلب، فقال النبيّ ﷺ: "لأستغفر لك ما لم أنهى عنه"، فنزلت: ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**﴾[التوبة، 113]، فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه منهم، فنثر على رأسه ترابا.

وأما الحادث الثاني الذي ترك حزنا عميقا في نفس النبي ﷺ، فهو موت السيدة الجليلة المهيبة في قومها، والتي كانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة خديجة رضي الله عنها، وكانت له وزير صدق، كما كانت نعم الزوجة الصالحة العاقلة، يجد فيها سكن النفس وطمأنينة القلب وراحة الروح، فكان كلما ناله من قريش أذى عاد إليها؛ فتزيل عنه آثار الأذى بيديها، وتسري عن نفسه بقلبها وحنانها وحديثها المؤمن المستطاب. وكانت وفاتها بعد وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من النبوة عن عمر ناهز خمسا وستين سنة، وتوفيت بعده في شهر رمضان بقليل، وقيل بأيام، وقيل بشهر، وقيل شهر وخمسة أيام.

6- **خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف:**

رغم مُصاب النبي ﷺ الجلل وفقده أهم ناصر ومعين له عمّه وزوجته، لم يثنيه ذلك على نشاطه الدعوي داخل مكة وخارجها. إذ لما رأى ﷺ، استهانة قريش به واجترائهم عليه، اتجه إلى ثقيف بالطائف برفقة زيد بن حارثة رضي الله عنه؛ لأنهم للنبيّ ﷺ فيها خؤولة، وهذا في ليال بقين من شوال سنة عشر من مبعثه، وفي الطريق عرض النبي ﷺ الإسلام على القبائل التي تسكن بين مكة والطائف، ووصل إلى الطائف راجلا يدعو إلى التوحيد، قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمر بن عمير الثقفي، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردّوا عليه ردّا قبيحا ولم يرى منهم خيرا، وحينذاك طلب منهم ألا يشيعوا ذلك عنه في قومه قريش، فلم تفعل ثقيف ما رجاه ﷺ، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم وعبيدهم؛ فراح هؤلاء يلقون الحجارة عليه حتى أدموا عقبه ﷺ، وتجمدت الدماء في خفّه حتى صعب عليه خلعه للوضوء، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه حتى شج رأسه شجاجا رضي الله عنه.

وما زالوا بهما حتى ألجأوهما إلى حائط بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما؛ لعداوتهما الله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب فجلسا فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن تضرع إلى الله بالدعاء؛ ولما رأى ابنا عتبة ما عليه النبي، تحركت رحمهما ورقّا له، وأرسلا بقطف من العنب مع مولى نصراني يدعى عدّاس، فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال: باسم الله، قال: هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال ﷺ: من أي البلاد أنت وما دينك؟ قال: نصراني من نينوى، فقال عليه الصلاة والسلام: من قرية الرجل الصالح "يونس بن متّى"، قال: وما علمك بيونس؟ فقرأ له من القرآن من قصة يونس؛ فلما سمع ذلك عدّاس أسلم.

وقد أقام عليه الصلاة والسلام في الطائف عشرة أيام داعيا، وعند رجوعه إلى مكة، سأله مولاه زيد: كيف تدخل عليهم(قريش) وهم أخرجوك؟ فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومُظهر نبيّه، ثم انتهى إلى حراء، فأرسل رجلا من خزاعة إلى مُطعِم بن عدي: يطلب منه أن يدخل في جواره، فقال: نعم، فنادى عند أركان البيت، يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً؛ فانتهى رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الركن، فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ﷺ.

7- **قصة الإسراء والمعراج:**

لم يركن عليه الصلاة والسلام للراحة والدعة بعدما رجع إلى مكة، بل أخذ يطوف مع صديقه أبوبكر رضي الله عنه، عن القبائل خارج مكة يدعوهم إلى الإسلام، فقد أتى كندة، وقبيلة بني عبد الله، وقبيلة بني الأحنف، وقبيلة بني عامر بن صعصعة؛ فلاحظ صدود القوم عن الإيمان. وبعد هذه الشدائد المتلاحقة، كان من رحمته سبحانه بعبده عليه الصلاة والسلام أن أكرمه بالإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة في يوم الاثنين. والإسراء: هو إذهاب الله نبيه محمدا ﷺ، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بفلسطين في جزء من الليل، ثم رجوعه في ليلته. وأما المعراج: فهو إصعاده ﷺ

من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما فوق السبع، حيث فُرضت الصلوات الخمس، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

وحديث الإسراء والمعراج ثابت بنص القرآن قال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾[الإسراء، 1]. وقد ورد في الصحيحين أنه تم شقّ صدره ﷺوهو في بيته في مكة – والبعض يقول في البيت الحرام-، أتاه جبريل ففرج صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ومُلأ قلبه إيمانا وحكمة؛ استعدادا للإسراء به. وبعد أن فُرغ من شق صدره وغسله، أُسري به إلى بيت المقدس على البراق(دابة دون البغل وفوق الحمار) حيث صلّى بالأنبياء، ثم عرج به إلى السماء السابعة مارا ببقية السموات الست، ملتقيا بالأنبياء: آدم، ويوسف، وإدريس، وعيسى، ويحي بن زكريا، وهارون، وموسى، وإبراهيم. وقد سمع صريف أقلام الملائكة، وفرضت عليه الصلاة خمسين ثم خُفّفت إلى خمس صلوات.

ثم رجع عليه الصلاة والسلام من ليلته، فلما أصبح غدا إلى نادي قريش، فجاء أبو جهل فأخبره بما جرى، وسمعت قريش بالخبر؛ فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه إنكارا، وارتد بعض من المؤمنين من ضعاف القلوب، وسعى رجال إلى أبوبكر وأخبروه فقال: إن قال ذلك فقد صدق؛ فسُمِّيَ من ذلك اليوم صدّيقا. ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله ﷺ، فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه، ولم يكن قد تثبت منه، فجلاه الله فصار يصفه لهم بابا بابا وموضعا موضعا. وأخبرهم عن عِيرهم وكانت لهم عير قادمة من الشام؛ فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال تَقْدُمُ يوم كذا مع طلوع الشمس؛ وأقبلت العير كما ذكر ووصف عليه الصلاة والسلام.

8- بيعتا العقبة الأولى والثانية:

لما أراد الله أن يظهر أمر دينه على أيدي غير قريش من العرب، اختار نفرا من حجاج يثرب. فيُذكر أنه في موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبعثة جويلية 620م، ورسول يطوف ليلا على القبائل داعيا، مرّ بعقبة منى فسمع أناسا يتكلمون، فقصد النبي مكان الصوت؛ فوجد ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، فذكر لهم رسول الله ﷺ عظمة الله وجلاله، ودعاهم للإسلام، ومع أنهم كانوا وثنيين، إلا أنهم طالما سمعوا من يهود مدينتهم مرة بعد مرة أن نبيّا سيبعث قريبا؛ ولهذا صدّقوه وأسلموا من فورهم وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

أ- **بيعة العقبة الأولى**: فلما كان موسم الحج العام المقبل 12 من البعثة جويلية سنة 621م، قدم اثنا عشر رجلا منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس. ولقوه ﷺ في العقبة، فأسلموا وبايعوا نبيّ الله عليه الصلاة والسلام على نمط بيعة النساء، ولم يفرض يومئذ القتال، يقول عبادة بن الصامت: بايعنا رسول عليه الصلاة والسلام، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتيَ ببهتان نفتريَه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيَه في معروف، فإن وفيتم فلكم

الجنة، وإن غشيتم شيئا فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. وأضاف عبادة: فبايعناه على ذلك. فلما أرادوا الانصراف بعث رسول الله ﷺ، معهم "مصعب بن عمير"، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمى مقرئ المدينة، وهو أول سفير في الإسلام.

يذكر صاحب عيون الأثر، أن رسول بعث مع مصعب بن عمير عبد الله ابن أم مكتوم - وهو ابن خالة خديجة - يعلّمان من أسلم القرآن، ويدعوان من لم يسلم إلى الإسلام. ونزل مصعب على أسعد بن زرارة وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يؤمُّهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمَّه بعض، فجمَّع بهم أوّل جمعة جُمِّعت في الإسلام. وقد أسلم على يديه(مصعب) سادة المدينة: من بني عبد الأشهل نجد "سعد بن معاذ" سيّد الأوس، وابن عمه "أُسيد بن حُضير"، و"سعد بن عبادة" سيّد الخزرج؛ فأسلم لإسلامهم كثير من قومهم، وقد انتشر الإسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.

ب- **بيعة العقبة الثانية:** في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة يوافق جوان 623م، حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين. يروي كعب من مالك – وهو أحد المبايعين – فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رِحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلّل تسلُّل القطا(طائر) مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، وامرأتان من نسائنا وهما: نُسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو؛ فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله، حتى جاءنا رسول الله ومعه عمه العباس أحبّ أن يحضر معه ويتوثق له، فتكلم العباس يريد التأكد من حماية الأنصار لابن أخيه في هجرته. وتكلم عليه الصلاة والسلام فتلا القرآن، ورغّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وحينذاك ابتدأت المبايعة، فبايعه الرجال على ما طلب، وأول من بايع أسعد بن زرارة، وقيل البراء بن معرور، وقيل أبو الهيثم بن التيهان، ثم بايعه السبعون كلهم، وبعدها تخير منهم اثني عشر نقيبا لكل عشيرة منهم واحد، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: أبو الهيثم بن التيهان، وأسعد بن زرارة، وأُسيد بن حُضير، والبراء بن معرور، وسعد بن أبي خيثمة، وسعد ابن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمر، وعبادة بن الصامت، والمنذر بن عمرو. ثم قال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. ولأَمرٍ ما أراده الله بَلَغ خبر هذه البيعة مشركي قريش، فجاءوا ودخلوا شِعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا؛ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة، يحلفون لهم أنه لم يحصل شيء في ليلتهم.

وهكذا مرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة، ينتظرون هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم بتلهف كبير. ولقد اعتبر بعض من أرّخ لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أن بيعة العقبة الثانية كانت أخطر بيعة في تاريخ الدعوة

الإسلامية؛ فقد كانت حدا فاصلا بين عهدين من عهود الدعوة، ولقد منَّ الله عليهم بهذه النعمة، بعد أن كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم؛ فآواهم وأيدهم بنصره.

الهجرة النبوية إلى المدينة المنوّرة

لم تكن الهجرة إلى المدينة سياحة رَغِب فيها المهاجرون، ولم تكن مكة أرض وباء أو دار مملة ليفرح المهاجرون بنبأ الهجرة عنها، وإنما جاء أمر الهجرة تكليفا من تكاليف العقيدة التي آمنوا بها، وضرورة استلزمتها طبيعة رسالة الإسلام، ووجوب إبلاغها. ونتتبع أخبار هجرة المصطفى إلى المدينة في الفقرات الآتية.

نجد أول إرهاصات الهجرة النبوية، حدث مع بعثة الرسول ﷺ، وقد عبّر عن هذا ورقة بن نوفل، حينما أخبره النبي بما رأى وبما سمع في غار حراء، ليتني أكون جذعا حيا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله: أوَ مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي. وأما الإرهاص الثاني من إرهاصات الهجرة، يتمثل في أمور مزدوجة هي: دخول نفر من قريش وأتباعهم، وبعض رجالات العرب في دين الله بمكة، وتأذي قريش واستنكارها لهذا الاتجاه الجديد، وخوفهم من استفحال أمره. وجاء ثالث الإرهاصات مباشرا ومتصلا عن كثب بهذه الهجرة المرتقبة من قريش، والمرجوة من قبل النبي وأصحابه، وبخاصة أنه قد مهّد لها الطريق، ودلّ على نجاحها أمور عدة منها: نجاح هجرة بعض الصحابة إلى أرض الحبشة.

1 – الإذن للمسلمين بالهجرة:

بعد بيعة العقبة الثانية وما وجده رسول الله ﷺ من النصرة والتأييد من أهل يثرب، طابت نفسه وقد جعل الله له منعة، وقوماً أهل حرب، وعُدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين؛ لِمَا يعلمون من الخروج وأنه حالف قوما عليهم، فضيّقوا على أصحابه وتعبثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى؛ فشكا ذلك الصحابة إلى النبيّ ﷺ واستأذنوه في الهجرة، وكان رسول الله يثبتهم، ويصبرهم، ويعدهم فرجًا ومخرجا من هذا الكرب. وقد رأى النبي ﷺ فيما يرى النائم أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب ظنه إلى أنها اليمامة، أو هَجَر(بلدة بالبحرين)، ثم استبان له ﷺ أنها المدينة، قال عليه الصلاة والسلام: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين»؛ وهما الحرّتان.

ثم مكث أيّاما عليه الصلاة والسلام، ثم خرج عليهم مسرورا فقال: قد أُخبرت بِدار هجرتكم وهي يثرب، وإن الله قد جعل لكم إخوانا ودار تأمنون بها، فمن أراد الخروج فليخرج إليها؛ فخرجوا أرسالاً، وجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسعون ويخرجون ويخفون ذلك. فكان أول من قدم المدينة من أصحاب النبي ﷺ، أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وامرأته أم سلمة، ثم تتابع خروج أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم: عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة، فهي أول ظعينة –المرأة تركب البعير– قدمت المدينة، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم، وقدم بلال، وسعد، وعمار، ثم خرج عمر بن الخطاب مستعلنا ومعه عياش بن أبي ربيعة في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، وصهيب الرومي وغيرهم، ونزلوا كلهم على الأنصار فآووهم ونصروهم وواسوهم. وأما رسول الله ﷺ فقد أقام بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له

في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من الصحابة إلا من حُبس أو فُتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبوبكر الصديق رضي الله عنهما، وكان بقاء الصديق بإذن من رسول الله، بحيث أن أبا بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له ﷺ: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً فيطمع أبوبكر أن يكونه.

2 – ائتمار قريش برسول الله ﷺ:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد أصبح له أتباع كثيرون، وأنصار من أهل المدينة يُفدونه بأنفسهم وأهليهم وأولادهم، وأن أصحابه من المهاجرين قد أمسوا في دار أمان وعزة ومَنعة بعد أن هاجروا إليها، وتجمعوا فيها، وعند خروج رسول الله لهم ستكون الطامة على قريش، فسيحاربوهم، ويغتصبوا عليهم بلدهم؛ لهذا اجتمع أشرافهم ورؤساؤهم في اليوم الذي تواعدوا فيه في دار الندوة، يتشاورون فيما بينهم بشأن رسول الله ﷺ، وقد حضر الجلسة أيضا شيطان نجد العجوز المحنك في هيئة شيخ جليل. اقترح أبو البختري عليهم: احبسوه في حديد، وأغلقوا عليه بابا، إلى أن يقضى عليه بالموت، لكنهم رفضوا ذلك مخافة أن يجتمع أصحابه وينقذوه، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم وينقضوا عليكم. وأشار أبو الأسود: بأن نحمله على بعير جامح ونخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا؛ فنفرغ بذلك منه. لكن هذا الرأي لم يجد موافقه عند الشيخ النجدي والقوم؛ خشية أن يغلب النبيّ الناس بحديثه، ثم يجمع منهم قوة تدحر قريشاً في يومٍ من الأيام، وينتقموا لنبيّهم. ورأى أبو جهل أخيراً أن يأخذوا من كل قبيلة فتىً شاباً جلداً نسيبا وسيطا فينا، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، فيعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد، وهكذا يتفرق دمُه بين القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فيرضوا منّا بالعقل(الدِّية)، فعقلناه لهم، فحظي رأي أبو جهل بالقبول، وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

3 – خروج رسول الله وصاحبه والتحصّن في الغار:

وفيما كانت قريش تجمع فتيانها، نزل جبريل على نبيّ الله ﷺ فأخبره الخبر وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، وقد أنزل سبحانه وتعالى في شأن هذه المؤامرة قوله: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا لِيُثْبتوك أو يَقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾[الأنفال، 30]. وكان من عادة رسول الله ﷺ، أن يأتي بيت أبي بكر كل يومين بكرة وعشية، قالت عائشة: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً – مغطياً رأسه – في ساعة لم يكن يأتينا فيها وقت الهاجرة، فقال أبوبكر: والله ما جاء به في هذه الساعة إلا لأمر حدث، فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن له، فدخل، فاستأخر أبو بكر عن السرير حتى جلس عليه، فقال لأبي بكر: أخرِج مَنْ عِندَك، فقال أبوبكر إنما هم أهلك يا رسول الله، قال النبيّ ﷺ: «إني قد أذن لي بالخروج»، فقال أبوبكر وهو يبكي من الفرح الصُحبة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال الصدّيق: اختر إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: بالثمن، فأخذ إحداهما وهي القصواء. واستأجر الصديق عبد الله بن أُريْقط كدليل– وهو مُشرك –، كان أمينا هادئا خِرِّيتا ماهرا بالطريق، ودفعا إليه الراحلتين اللتين أعدّهما الصديق رضي الله عنه للهجرة، فكانت عنده يرعاهما لميعادهما الذي واعداه بعد ثلاث.

وقد اشترك آل بيت أبي بكر في الإعداد للهجرة، تقول عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة(الزاد) ووضعناها في جراب، فلما أرادت أسماء ربط فم الجراب لم تجد شيئًا؛ فشقت نطاقها نصفين فربطت فم الجراب بنصفه، وانتطقت بالآخر؛ فلذلك سميت "بذات النطاقين" أو "ذات النطاق". وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أخبر أبوبكر بالإذن له في الهجرة إلى بيته، وقال لعلي رضي الله عنه: نم على فراشي الليلة(للتمويه)، وتسَجّ بِبُرْدي هذا الحضرمي الأخضر فإنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه. وقد أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة؛ حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للنّاس، وكان رسول ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عنه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته عليه الصلاة والسلام، فهو عدو مأمون، ومكروه محبوب.

فلما كانت عتمة الليل اجتمع فتيان من قريش على بابه، وبيدهم السيوف المرهفة، يتطلّعون من صِير(شقّ) الباب ويرصدونه يريدون ثيابه، فيرون عليّا وعليه بُرد رسول الله ﷺ؛ فيضنونه إياه، فلم يزالوا قياما حتى الصباح. وأما رسول الله ﷺ فقد خرج وهم جلوس على الباب، فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويتلو صدر سورة يس، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سُدا ومن خلفهم سُدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾[يس، 9]. وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يبصروا، ثم انصرف رسول الله ﷺ لشأنه، وبقي المشركون ينتظرون النائم حتى يخرج فيفعلوا به ما اتفقوا عليه. فأتاهم آت فقال لهم: ماذا تنتظرون؟ قالوا: محمدا، قال: خيّبكم وخسرتم، لقد مرّ بكم وذرّ على رؤوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه. فلما أصبحوا قام عليّ رضي الله عنه عن الفراش؛ فسألوه عن رسول الله ﷺ ، فقال لا علم لي به. وقدم هؤلاء إلى بيت أبي بكر، فدقوا بابه، فخرجت أسماء إليهم، فسألها أبو جهل: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ فقالت والله لا أعلم. فرفع أبو جهل – وكان فاحشا خبيثا – يده ولطم خدّها لطمة طرحت منها قرطها.

غادر رسول الله ﷺ بيته يوم الخميس 27 صفر سنة 13 من البعثة، الموافق 13 سبتمبر سنة 622م، وأتى إلى بيت الصديق رضي الله عنه الذي يترقب وصوله في أية ساعة. وخرج رسول الله وصاحبه، وقد تزودا بالزاد والماء ليلاً من خَوْخَة(باب خلفي) في ظهر بيت أبي بكر؛ حتى لا يراهما أحد، ولما ولى رسول الله ﷺ ظهره مكة توجه إلى البيت الحرام، وقال: «والله إنّك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». ثم سلكا طريقًا غير معهودة، فبدلاً من أن يسيرا نحو الشمال ذهبا إلى الجنوب باتّجاه اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ جبل يعرف بجبل ثور – جبل شامخ وعِر الطريق صعب المرتقى – حيث يوجد غار ثور. وكان رسول الله ﷺ تلك يمشي على أطرف قدميه؛ كي يُخفي أثره حتى حفيت قدماه، فحمله أبوبكر وهو يشتدُّ به حتى أتى به الغار.

ولما وصل النبي ﷺ وصاحبه إلى الغار، وأراد عليه الصلاة والسلام أن ينزل فيه، قال له الصديق: مكانك حتى أستبرئ لك، فإن كان به أذى نزل بي قبلك، ثم نزل فتحسّس الغار فلم يجد به شيئًا، فنزل رسول الله وقد بلغ منه الإعياء والتعب مبلغه فما أن دخلا حتى توسّد الرسول قدم أبي بكر ونام، وكان الصديق يأخذ من ثوبه ويسدُّ فم الأجحار؛ خشية أن يكون شيء من الهوام فتؤذي رسول الله ﷺ، فبقي منها جحر فألقمه عقبه، وكانت به حيّة فلدغته، فمنعه مكان رسول الله

ﷺ منه أن يتململ، أي فداءً يفدي بنفسه بعد هذا، ولكن الألم لمّا اشتد به وجعلت دموعه تنحدر، فسقطت على وجه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا أبا بكر؟ فأخبره بما حدث، فتفل عليها رسول الله فبرئت بإذن الله تعالى. وهما في الغار، أشار أبوبكر على ابنه عبد الله وهو غلام شاب ثقف(فطن) لقن(سريع الفهم)، أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره؛ ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحهما عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار، فاحتلبا وذبحا، وإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفِّي عليه؛ فيصبح مع قريش بمكة كبائت. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست ما يصلحهما.

4- قريش تَـجِدُّ في البحث عن النبيّ ﷺ:

رُوي أن رسول الله ﷺ، لما دخل هو وصاحبه الصديق الغار أمر الله سبحانه شجرة الرّاءة فنبتت على فم الغار فسترته، وانتشرت أغصانها على بابه، وألهم العنكبوت فنسجت على أغصان الشجرة، وألهم حمامتين وحشيّتين فعشّشتا وباضتا بين أغصان الشجرة في فم الغار، وقد كان لهذه الآيات الثلاث أثرها في تضليل المشركين وصدهم عن اقتحام الغار ودخوله وهكذا وقى الله نبيه وصاحبه بأضعف جنده. ولما تبيّنت قريش إفلات النبي ﷺ منهم جنّ جنونهم، وصاروا يهيمون على وجوههم طلبًا له، وجعلوا لمن يأتي به حيًا أو ميتًا مائة ناقة، وبعثوا القافة(قصاصو الأثر) في أثرة في كل وجه، منهم: كرز بن علقمة، وسراقة بن جعشم، فصاروا يتبعون الأثر حتى انتهوا إلى جبل ثور، ثم صعدوا الجيل حتى وقفوا على فم الغار، حيث شجرة الرّاءة حجبت عن أعين الكفار الغار، وهنا وقفوا متحيّرين! إذ لو كان دخل الغار فكيف لم يتهدّم نسيج العنكبوت، وكيف لم ينكسر بيض الحمام؟ ووقفوا متردّدين، أيدخلون الغار أم لا؟ حتى إن أحدهم همّ أن يدخل الغار فقال له الآخرون: إن هذا العنكبوت لمن قبل ميلاد محمد، فسمع رسول الله ما قال؛ فعرف أن الله عز وجل درأ عنه.

ورُوي أيضا، أنّه، عندما انتهى القافة إلى الغار؛ اشتد وَجدُ أبوبكر على رسول الله ﷺ، وقال: إن قُتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتِلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال رسول الله: "لا تحزن إن الله معنا"؛ ألا ترى كيف قال: لا تحزن، ولم يقل لا تخف؛ لأن حزنه على رسول الله شغله عن خوفه على نفسه، وكان أرقّ الناس على رسول الله وأشفقهم عليه. وفي الصحيحين، أن أبا بكر الصديق قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه أبصرنا فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». وقد تحدّث القرآن الكريم على المؤامرة الخطيرة التي حاكتها ندوة قريش من أجل إحباط هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة، وأشاد بحادث الغار وحديثه فقال: ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[التوبة، 40].

5- خروج النبيّ من الغار والوصول إلى يثرب:

وكمُنا ثلاث ليالٍ في الغار، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، حتى خمدت عنهما نار الطلب، ويئس المشركون من إدراكهما، جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين صبح ثلاث، تصادف يوم الاثنين غرة ربيع الأول سنة 1هـ الموافق 16 سبتمبر عام 622م؛ فارتحلا، وأردف أبوبكر عامر بن فُهيرة، وسار الدليل أمامهما، فأخذ بهما طريق

نحو الساحل، حتى وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقا لم يسلكه أحد، وعين الله تكلؤهما، وتأييده يصحبُهما، وإسعاده يرحلُهما وينزلهما.

وفي الطريق إلى المدينة مرّ النبيّ ﷺ بأن معبد، وقد رَوي حبيش أخي أم معبد قصتها مع النبي لما فيها من معجزة ظاهرة، فقال: فمرّوا بناحية قُدَيْد على أم معبد "عاتكة بنت خالد الخزاعية"، وكانت بَرزة، جلدة، ثم تسقي وتطعم من يمرّ بها، فسألوها: هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئًا، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما منعناه عنكم. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة خلّفها الجهد عن الغنم، فسألها رسول الله ﷺ: هل بها من لبنٍ؟ فقالت هي: أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: نعم بأبي وأمي إن رأيت حلبًا فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها، فتفاجَّت، ودرّت، ودعا بإناءٍ ليشرب الرّهط، فحلب فيه حلبا كثيرا وسقى القوم حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم شرب آخرهم وقال: ساقي القوم آخرهم شُربـًا، ثم حلب فيه آخراً وغادره عندها، وفي رواية أنه قال لها أن ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك، ثم ركبوا وذهبوا.

وتبعهما في الطريق سراقة بن مالك بن جعشم في اليوم الثالث من خروجهما طمعا في العطية التي رصدتها قريش. يقول سراقة: جاءنا رسُل كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر، ديّة كل واحد منهما، من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال يا سراقة: إني قد رأيت آنفا ركبا ثلاث مروا عليّ، أراها محمدا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها: أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره. وركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان(غبار) ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخفِ عنّا». فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم(جلد)، ثم مضى رسول الله ﷺ.

ولما بلغ المسلمين بالمدينة مخرج النبيّ ﷺ، من مكة هو وصاحبه الصدّيق رضي الله عنه، كانوا يخرجون كل غداة إلى الحرّة؛ فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فعلوا ذلك مراراً، فانقلبوا يومـًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم(الحصن) من آطامهم؛ لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيّضين(عليهم ثياب

بيض)، يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن صاح بأعلى صوته: يا بني قَيْلة – نسب إلى جدة الأنصار – هذا جدّكم الذي تنتظرون قد جاء؛ فخرجوا، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الثلاثة، فسُمعت الرّجّة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وخرج المسلمون للقائه، فتلقوه وحيّوه بتحيّة النبوة. يصادف ذلك يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة 13 من المبعث والسنة الأولى من الهجرة الموافق 23 سبتمبر 622م، ثم نزل رسول الله ﷺ بقباء، في بني عمرو بن عوف من الأنصار، فنزل على كُلثوم بن الهدْم، ولبث ﷺ في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة، وأسّس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أُسّس بعد النبوّة. وقد وصَل إلى ذلك المكان علي رضي الله عنه، وقدم رسول الله ﷺ، بعد بقي بمكة عدة أيام على طلب من النبيّ ﷺ؛ لكي يؤدي الأمانات الموجودة في بيته ﷺ إلى أهلها.

النبيّ ﷺ، يُرسي دعائم دولة الإسلام في المدينة

1 – مجتمع يثرب قبل الهجرة النبوية:

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها موروث، وبعضها حديث موجود، وفيهم الوافد الجديد. هذه البطون العربية والأخرى اليهودية، كانوا منتشرين في ربوع الحرّتين: حرّة واقم وحرّة الوبرة، وإن كانت حرّة واقم أكثر عمرانا. وهناك:

أ- **الأوس والخزرج** (ابني قَيْلة): يذكر بعض المؤرخين أن النبي داوود غزا أقدم من سكنوا المدينة، يقال لهم "صُعل وفالج" وأَسَر منهم طرفا، وأهلك طرفا آخر. وسكنها أيضا العماليق: وأول من زرع واتخذ بها النخيل، وعمّر بها الدور والآطام، واتخذ بها الضياع، وهم بنو عملاق بن ارفخشد بن سام بن نوح، وكان يدعى ملكهم الأرقم بن الأرقم، أرسل إليهم النبي موسى عليه السلام جيشا انتصر عليهم وقتلهم ولم يترك منهم أحدا، وأسكن مكانهم اليهود. ولما وقع سيل العرم في اليمن؛ نزلت الأوس والخزرج في يثرب وأقامتا بها، ووجدتا المال والآطام والنخيل في أيدي اليهود؛ فعقدتا معهم حلف جوار يأمن بعضهم بعضا، وبقوا دهرا كذلك حتى نقض اليهود عهد الحلف، فتغلبت يومئذ الأوس والخزرج وصارت الهيمنة للعرب وصار لهم الأموال والآطام، وهذا في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، ولا يبعد كثيرا عن الإسلام.

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها خلق كثير. وأولها حرب "سمير" و"سميحة"، وحرب أخرى بسبب امرأة، وثالثة تسمى "السرارة" بسبب مقتل رجل من بني عمرو الأوسيين. ووقعت حروب أخرى لأسباب تافهة؛ كحرب فارع، وحرب حاطب، ويوم الربيع، ثم يوم بُعاث؛ وكان هذا آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج. ولليهود دورا خطيرا في إذكاء الحرب بين الطرفين؛ ليخرجوا من بينهم سالمين، وبقي الحيّان يتخاصمان حتى مجيء رسول الله إليهما، ونظرا لمساعدة أهل يثرب للرسول ومناصرتهم له

وللمهاجرين، عُرف الأوس والخزرج بـ "الأنصار" في الإسلام، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية، حتى غلبت عليهم، وصارت بمنزلة النسب.

ب- **اليهود**: لقد انحاز بعضهم إلى يثرب زمن الاضطهاد البابلي والروماني، وكانوا في الحقيقة عبرانيين، ولكن بعد استقرارهم في يثرب اصطبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة، رغم تمسكهم بعصبيتهم الجنسية والدينية، وكانوا يحتقرون العرب احتقارا بالغا، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعُتوّ وفساد؛ يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعر به تلك القبائل، يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية؛ حتى لا يُعسروا على الحرب لعسر النفقة، ويكسبوا من وراء هذا الخبث ثروات طائلة. وكانت بيثرب يومئذ ثلاث قبائل مشهورة: بني قينقاع ديارهم داخل المدينة، ويني النضير سكناهم بالضواحي، وهما حلفاء للخزرج. وبنو قريظة ديارهم بضواحي المدينة، وكانوا حلفاء للأوس. وهذه القبائل اليهودية قد ساهمت بأنفسها في حرب بُعاث.

ت- **المهاجرون**: وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فرارا بدينهم، تاركين الأهل والولد والدور والمال، مجردين من كل شيء إلا من الإيمان، ومنهم من اصطحب معه زوجه وولده، ومنهم من تركهم، وقد عنى المهاجرين في مبدأ قدومهم شدّة ومرضا وغربة ووحشة، ولكنهم لم يلبثوا – بفضل إخوانهم الأنصار – أن تعودوا على جوّ المدينة، واندمجوا في المجتمع الجديد، وصارت وطنا لهم، وأبدلهم الله بالأهل أهلا، وبالمال مالا.

2- الإقامة عند بني النّجار في سافلة المدينة:

وبعد أن أسس رسول الله ﷺ مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس في الإسلام، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يُحبّون أن يتطهَّروا والله يُحبّ المُطّهّرين**﴾[التوبة، 108]. خرج رسول الله يوم الجمعة من قباء واتجه نحو يثرب، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاّها في المسجد الذي في بطن الوادي (وادي رانوناء)، فكانت أول جمعة صلاّها في المدينة.

ثم أتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة في رجال من بني سالم، فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعُدة والمنعة قال: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ – لناقته القصواء – فخلّوا سبيلها، فانطلقت حتى وازت دار بني بياضة، تلقّاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عُبادة والمنذر بن عمرو في رجال بني ساعدة، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة»؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت، حتى وازت دار بني الحارث بن الخزرج، اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بني بَلْحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: خلّوا سبيلها فإنها مأمورة؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت.

ومرّ الموكب بدار عدي بن النجار وهم أخوال جدّه، اعترضه سَليط بن قيس وأبو سليط بن أبي خارجة في رجال من عديّ بن النجار، فقالوا: يا رسول الله هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعُدة والمنعة، فقال: «دَعوها فإنها مأمورة»؛ فخلّوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ﷺ، وكان يومئذ مِربدا لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر معاذ بن عفراء، سهل وسهيل ابني عمرو، فلما بركت ورسول الله لم ينزل وثبت، فسارت غير بعيد ورسول الله عليه الصلاة والسلام واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مَبركها أوّل مرّة فبركت فيه، ثم تحلحلت وأزمّت وألقت بجِرانها (مقدم عنق البعير).

فرح أهل يثرب بِمقدم رسول الله ﷺ، يقول البراء: فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون: الله أكبر جاء رسول، الله أكبر جاء رسول. يا عجبا لنقائض الحياة واختلاف الناس، إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله، ولم ترجع عنه إلا مقهورة، استقبلته المدينة وهي جزلانة طروب. ثم نزل رسول الله ﷺ عنه ناقته؛ فتنازعته الملأ أيهم ينزل عليه، فقال: «إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وطبيعي أن لا يغضب أحد من أشراف المدينة؛ لأن أحق الناس به هم أقرباؤه وأهله، وبهذا التصرف الحكيم تخلص الرسول الكريم من هذا الموقف المحرج حقا. ثم سأل عليه الصلاة والسلام: أي دور أهلنا أقرب؟ فقال السيد الجليل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري: أنا، فاحتمل رحلَ رسول الله إلى منزله، فقال رسول معتذرا بِلُفط عن النزول عند غير بني النجار: "المرءُ مع رَحلِه"، وجاء أسعد بن زُرارة فأخذ بزمام راحلة رسول الله ﷺ، فكانت عنده.

وأوّل هدية دخلت على رسول الله ﷺ، وهو في منزل أبي أيوب، من عندِ أمّ زيد بن ثابت إذ يقول: دخلت بها قصعة مثرودة فيها خبز وسمن ولبن، فقلت أَرْسلت بهذه القصعة أمي، فقال: بارك الله فيك، ودعا أصحابه فأكلوا، فلم أَرِم(أبرح) الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عُبادة ثريد وعُراق، ما كان من ليلة إلاّ وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون ذلك، حتى تحوّل ﷺ من منزل أبي أيوب، وكان مقامه فيه سبعة أشهر. وسميت يثرب بالمدينة مُذ نزل بها رسول الله ﷺ.

وعن إقامة رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب، يروى عن الأخير: أن النبيّ ﷺ، نزل في السفل من البيت، وأبو أيوب في العلو، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة، فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ، فتنحّوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبيّ ﷺ: «السفل أرفق»، ولا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول النبيّ صلى الله عليه وسلم في العلو، وأبو أيوب في السفل. وكان يصنع للنبيّ ﷺ طعاما، فإذا جيء به(الإناء) إليه سأل عن موضع أصابعه؛ فيتتبع موضع أصابعه للبركة، فصُنع مرة له طعاما فيه ثوم، فلما ردّ إليه سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ كعادته، فقيل له: لم يأكل، ففزع وصعد إليه، فقال: أحرام هو؟ فقال النبيّ ﷺ: «لا ولكني أكرهه»، قال: فإني أكره ما تكره.

ومن منزل أبي أيوب بعث النبيّ ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة؛ ليستقدما أهله، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، فقدما عليه بفاطمة وأمّ كلثوم ابنتي رسول الله، وسوْدة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد وأمه أمّ أيمن، وكانت رقيّة

بنت رسول الله ﷺ قد هاجر بها زوجها عثمان بن عفّان قبل ذلك، وحبس أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة ابن النعمان. وفي الصحيح عن أسماء رضي الله عنها: أنها حملت بعبد الله بن الزبير، قالت: فخرجت وأنا مُتِم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبيّ ﷺ فوضعته في حجره، ثم «دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيهِ، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنّكه بتمرة ثم دعا له، وبرَّك عليه وكان أول مولود ولد في الإسلام».

قدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي أوبأ أرض من الحُمَّى(الملاريا)؛ فأصاب أصحابه منها بلاء وسُقم وصرف الله ذلك عن نبيّه، قالت عائشة: كان أبوبكر وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصابتهم الحمى؛ وإنهم ليهذون وما يعقلون من شدّتها، فذكرت ذلك لرسول، فقال:«اللّهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكّة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعها وفي مدّها، وصحِّحها لنا وانقل حُمَّاها إلى الجحفة»، وقد استجاب الله لنبيّه الدعاء، ورأى رؤيا تأوّلها ﷺ خروج وباء المدينة، قال: «رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة، فأولت أن وباءها نُقل إلى مهْيعة» وهي الجحفة. بحيث صار جوّ المدينة من أحسن الأجواء.

وفي أثناء مقام الرسول ﷺ بدار أبي أيوب، قدم عليه أحد أحبار اليهود وعلمائهم وهو "عبد الله بن سلام"، وكان يعلم من كتبهم أوصاف النبي المبعوث في آخر زمان. وروى أنس بن مالك قصة إسلامه فقال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، وبعدما أجابه؛ قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود بعد دعاهم النبيّ، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أي رجل فيكم عبد الله بن سلام» قالوا أعلمنا، وابن أعلمنا، وأخيرنا، وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرّنا، وابن شرّنا، ووقعوا فيه. وقد أسلم بإسلامه أهل بيته، وعمّته خالدة بنت الحارث.

3 – أسس ودعائم الدولة المحمديّة:

أ- بناء المسجد النبوي: وهو بدار أبي أيوب بُني المسجد النبوي، وقد بنوه في المكان الذي بركت به راحلته، قال رسول الله ﷺ: «هذا إن شاء الله المنزل»، وقد كان في الأصل بستانا فتخرّب بعضه فبنيت فيه قبور، واتُّخذ بعضه مربدا لتجفيف التمر. وقد دعى النبيّ الغلامين فساومهما بالمربد، ليتخذه مسجدا، فقالا: لا، بل نَهبُه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة، وقال: "ثامنوني به"؛ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير دفعها الصدّيق رضي الله عنه. ثم أمر رسول بالنخل فقطعت، وبالقبور فنُبشت، وبالخَرِب فسويت، وأمر باللبن فضُرب. ثم شُرع في بناء المسجد، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللبن: "اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجره".

وأسسوا المسجد فجعلوا طوله ممّا يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي هذين الجانبين مثل ذلك فهو مربع، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وبابا يقال له: باب الرحمة، والباب الثالث الذي يدخل منه رسول الله، وهو الباب الذي يلي آل عثمان. وجعل طول الجدار بسْطةً، وعُمُده الجذوع، وسقفه جريد النخل. وبنى إلى جنبه بيوت أزواجه باللّبن، وسقفها بالجريد والجذوع، فلما فرغ من البناء؛ بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد قبليه، وهو مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة بنت زمعة بيتاً آخر. وقد ظل مسجد رسول الله ﷺ، على هذا الشكل المذكور دون أي زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم زاد فيه عمر رضي الله عنه بعض التحسين، ولكنه بناه على بنائه في عهد النبي باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا. ثم غيّره عثمان رضي الله عنه، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة(الجص) وسقّفه بالساج.

وكان الناس إنما يجتمعون إلى الصلاة لتحيّن مواقيتها من غير دعوة، فهمّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقا كبوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنُحِت ليَضربَ به للمسلمين في الصلاة، فبينما هم على ذلك رأُيَ "عبد الله بن زيد بن ثعلبة" النداء في منامه، يقول ابن زيد: فلما أصبحت، أتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته، بما رأيت، فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقُم مع بلال وألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى صوتا منك» فقمت مع بلال، فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب، وهو في بيته فخرج يجر رداءه، ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد».

ب- **المؤاخاة بين المهاجرين مع الأنصار**: ولما استقر المسلمون بالمدينة، آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا، ويقال كانوا مائة، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عزّ وجل: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾[الأحزاب، 6]، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، ورد التوارث إلى الرّحِم دون عقد الأخوة. وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، والثبت عند أهل العلم الأول. وآخى يومئذ بين أبو بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وبين علي ابن أبي طالب وسهل بن حنيف، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم بن التَّيهان، وزيد بن حارثة وأُسيد بن الحُضير، وبين سعد بن وقاص وسعد بن معاذ، وبين عمار وحذيفة بن اليمان، وبين أبي سلمة وسعد بن خيثمة، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب.. وغيرهم. وقد اختلف العلماء في وقت هذه المؤاخاة، ورجّحه البعض بأنه كان بعد الهجرة بقليل؛ لأن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء جمعا للشمل، وتوثيقا للعرى. وفي تلك الأشهر والمسجد يُبنى، توفي أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار أخذته الذبحة أو الشهقة؛ فوجد (حزن) عنه رسول الله ﷺوجدا شديدا لفراقه، وقد كان كواه من ذبحة نزلت به. لما مات اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله،

اجعل لنا رجلا مكانه نقيبا علينا، فقال رسول الله ﷺ: أنتم أخوالي وأنا فيكم، وأنا نقيبكم؛ وكره رسول أن يخصّ بها بعضهم دون بعض؛ فكانت من مفاخرهم.

ت- **موادعة النبيّ ﷺ اليهود:** وأما الأساس الثالث في بناء المجتمع الجديد، هو ترسيم العلاقات أو صلة الأمة بالأجانب عنها، الذين لا يدينون بدينها، فإن رسول الله ﷺ قد سنّ قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي، فوادع يهود المدينة؛ لتكون طيبة مسلمها وكافرها يدا واحدة أمام الأعداء من الخارج، إذ أن قريشا ربما تفكر في القيام بعمل ضد المدينة، ومن ناحية ثانية حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديد. وكتب بين المهاجرين والأنصار كتابا وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وأهم بنود ما تضمنته تلك الوثيقة التاريخية، هو الآتي:

- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة.
- إن المؤمنين المتقين يتكاتفون دون ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بينهم، وأنّ أيديهم عليهم جميعا ولو كان ولد أحدهم.
- لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن..
- لا يحل لمؤمن أقرّ بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا(مجرما) ولا يؤويه، وإن من نصره وآواه؛ فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة.
- اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.
- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.
- من خرج من المدينة آمن ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.
- إن الله أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن برّ واتقى.

وبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرما آمنا، وأصبح كلّ من المسلمين واليهود في أمن من جانب الآخر، وأصبح اليهود ملزمين بمعونة المسلمين إذا ما دهم المدينة عدو، وبعدم مشاركة المشركين ومناصرتهم ضدهم. ولقد وفّى النبيّ والمسلمون بكل الالتزامات التي أوجبتها هذه الوثيقة عليهم، على حين لم يفِ بما فيها اليهود، ولما عادوا إلى طبيعتهم من الدس والخداع؛ فحاولوا الوقيعة بين الأوس والخزرج، وهمّوا بقتل النبي، واستباحوا حرمات المسلمين؛ فكانت عاقبة أمرهم ذلا.

صراع الإسلام مع الوثنية (المرحلة الأولى)

1- النشاط العسكري قبل غزوة بدر:

أ- **مشروعية قتال الكفار والمشركين:** كان القتال محرّما على المسلمين قبل الهجرة، ولمّا استقرّ رسول ﷺ بالمدينة، وأيّده الله بنصره؛ وبعباده المؤمنين من الأنصار، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإِحَنِ التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه وقدّموا محبّته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، رمتهُمُ العربُ واليهود عن ساق واحدة، وشمّروا عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كلّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح؛ فأُذن لهم بالقتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى:﴿**أُذن للّذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾[الحج، 37]، وهي أوّل آية نزلت في القتال.

ثم فُرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يُقاتلهم، وكانت هذه هي المرحلة الثانية في تشريع الجهاد، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يُحبّ المعتدين**﴾[البقرة، 189]، والآية الكريمة تنهى عن الاعتداء بقتل النساء والشيوخ والأطفال، ومن لا يرفع السلاح بوجه المسلمين. وكان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا».

وفي الحالة السابقة، لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب؛ ولما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب، واتّحدوا عليهم مع الأعداء، أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾[التوبة، 36]؛ وبذلك صار الجهاد عاما لكلّ من ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحِسابهم على الله». ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود، حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر الله بقتالهم بقوله: ﴿**وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين**﴾[الأنفال، 59]. وقتالهم واجب حتى يُدينوا أو ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ ليأمن المسلمون جانبهم.

ب- **الغزوات والسرايا الاستطلاعية:**

كانت الفترة التي تلت هجرة الرسول ﷺ حتى معركة بدر حوالي تسعة عشر شهرا، وفي أثناء هذه الفترة لم يحدث أيّ عِراك دامي بين مكة والمدينة، والنشاط العسكري فيها أشبه بدوريات استطلاعية قام بها المسلمون للاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة، واختبار مدى قوة القبائل المحيطة بالمنطقة، ومحاولة كسب بعضها بالمحالفة والموادعة، كما كان الهدف منها إشعار المشركين واليهود بقوة المسلمين على صدّ أي اعتداء يتعرضون له. واستهدفت طلائع حركات الجهاد هذه من سرايا وغزوات والتي اتجهت أغلبها غربي المدينة ثلاثة أمور:

- تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.

- عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة؛ لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش.
- إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة، بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل.

ذكر أصحاب السير عن موسى بن عقبة، أن عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سريّة، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات: بدر وأُحد والمُرَيْسع والخندق وقريظة وخَيبر وفتح مكة وحُنين والطّائف، وهذا ما اجتمع لنا عليه كما قال صاحب الطبقات الكبرى.

- **سريّة حمزة بن عبد المطلب**: وتسمى سرية سِيف البحر، وقعت في رمضان السنة الأولى من الهجرة الموافق مارس سنة 623م، أمّر رسول الله ﷺ عليها حمزة بن عبد المطلب وعقد له أول لواء أبيض حمله أبو مَرْثَد كَنّاز بن الحُصين الغَنَوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين راكبا من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدا من الأنصار مَبعثا حتى غزا بدراً، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم وهو الثبت عند صاحب الطبقات. وقد خرجت السريّة بقيادة حمزة تعترض عيرا لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة راكبا، فبلغوا سِيف البحر(يعني ساحله) من ناحية العِيص، فالتقوا حتى اصطفّوا للقتال، فمشى مَجْدي بن عمرو الجُهني وكان حليفا للفريقين إلى هؤلاء مرّة وإلى هؤلاء مرّة حتى حَجَزَ بينهم ولم يقتتلوا، فتوجّه أبو جهل في أصحابه وعِيره إلى مكة، وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة، وشكره عليه الصلاة والسلام مجديا على عمله؛ لما كان من قلّة عدد المسلمين وكثرة عدوّهم.

- **سريّة عبيدة بن الحارث**: تسمى سريّة رابغ، عقد فيها رسول الله ﷺ اللواء لابن عم أبيه عبيدة بن الحارث بن المطلب في شهر شوال السنة الأولى للهجرة الموافق أفريل سنة 623م، وحمله(اللواءَ الأبيض) مِسطَح بن أُثاثة بن المطّلب. وأمر النبيّ ﷺ عبيدة بالمسير إلى بطن رابغ في ستّين أو ثمانين راكبا؛ ليعترض سبيل قافلة لقريش تتألف من مائتي راكب، فبلغ ثَنيّة المُرّة وهي في ناحية الجحفة، والتقوا هم والمشركون على ماء يقال له أحياء، وكان بينهم الرمي دون المسايفة، وقد رمى يومئذ سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أوّل سهم رُمي في سبيل الله، ولم تستمر المناوشة، إذ انهزم المشركون على الرغم من كثرتهم، وخافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمينا. وكانت عير قريش بإمرة أبو سفيان بن حرب، وفرّ رجلان من المسلمين كانا مع المشركين وهم: المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان والتحقا بالمسلمين.

- **سريّة سعد بن أبي وقاص**: وتسمى سريّة الخرّار، وفيها بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص إلى الخرّار، وعقد له لواءً أبيض، وحمله المقداد بن عمرو البهراني، في ذي القَعْدة من السنة الأولى للهجرة الموافق ماي 623م، خرج في عشرين راجلا، يعترضون عيرا لقريش، وكان رسول قد عَهِد إلى سعد ألاّ يجاوز الخرّار، فكانوا يكمنون نهارا، ويسيرون ليلا، حتى صبّحوا الخرّار صُبح خامسة، فوجدوا العير قد مرّت بالأمس.

- **غزوة الأبواء أو ودّان**: وهما مكانان متقاربان بينهما نحو ستة أميال، وهي أول غزوة غزاها النبيّ عليه الصلاة والسلام بنفسه، وكانت في صفر السنة الثانية للهجرة الموافق أوت 623م، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة، وخرج في المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش، فلم يلق كيداً، وفي هذه الغزوة وادع مخشيَّ بن عمرو الضَّمْرِي وكان سيّد بني ضَمرة من بني كنانة في زمانه، على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثِّروا عليه جمعا، ولا يعينوا عليه عدواً، وكتب بينهم كتابا، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

- **غزوة بُواط**: أقام رسول الله ﷺ في المدينة حتى شهر ربيع الأول من السنة 2هـ الموافق سبتمبر 623م حيث خرج غازيا حينما بلغه أن عيرا لقريش آيبة من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فخرج إليها في مائتين من أصحابه، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن معاذ، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، وبلغ بواطا من ناحية رضوى، ولكن أمية كان قد نمي إليه خبر خروج المسلمين للقائهم؛ فأسرع بالقافلة ونجا بها.

- **غزوة سَفَوان**: في شهر ربيع الأول السنة 2هـ الموافق سبتمبر 623م، وهي غزوة غزاها النبيّ لطَلَبِ كُرْز بن جابر الفِهري، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وكان قد استخلف على المدينة زيد بن حارثة، وكان كُرْز بن جابر الفِهري قد أغار على سرْح المدينة فاستاقه، وكان يرعى بالجمّاء(جبل ناحية العقيق، بينه وبين المدينة ثلاثة أميال)، فطلبه رسول الله ﷺ، حتى بلغ واديًا يقال له سَفَوان من ناحية بدر، وفاته كُرز بن جابر؛ فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد سمّاها البعض غزوة بدر الأولى أو الصغرى.

- **غزوة ذي العُشَيْرة(أو العُسيرة)**: وفي جمادى الأولى وجمادى الثانية من السنة 2هـ الموافق نوفمبر ديسمبر 623م، خرج رسول الله في غزوة، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواء أبيض، واستخلف على المدينة أبا سَلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكان في خمسين ومائة، ويقال مائتين من المهاجرين، ولم يُكره أحدا على الخروج، وخرجوا في ثلاثين بعيرا يَعْتقِبونها، يعترضون عيرا لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العُشيرة أو العُشيراء، وقيل العُسيرة، وهي ناحية ينبع، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام؛ فصارت سببا لغزوة بدر الكبرى. وفي هذه الغزوة، وادع بني مُدْلِج وحلفائهم من بني ضَمرَة، وفيها كنّى رسول الله ﷺ عليّا أبا تراب.

- **سرية نخلة**: وفي رجب من السنة 2هـ الموافق جانفي سنة 624م، بعث رسول سرية بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة ومعه ثمانية من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان بعيراً إلى بطن نخلة، وهو بستان ابن عامر بالقرب من مكة. وقد أعطى النبي لعبد الله كتابا وقال له: «لا تفتحه إلا بعد يومين، فإذا فتحته فامض لما أمرتك به، ولا تستكره أحدا من أصحابك»، فلما سار يومين فتحه فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصّد بها قريشا

وتعلَّم من أخبارهم» فلما قرأ الكتاب قال: سمعا وطاعة، وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقد نهاني أن استكره أحدا منكم، فمضى ومضوا معه ولم يتخلّف منهم أحد.

ولما كان الركب في الطريق، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعُدَ أمير السريّة حتى نزا بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيبا وأَدَما وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بن المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم، انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم عمر بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين؛ فأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه، واشتدّ تعنُّت قريش وإنكارهم لذلك، وقالوا: قد أحلّ محمد الشهر الحرام، واشتد على المسلمين ذلك، حتى نزل قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل**﴾[البقرة، 215]، فكان في هذا إعذار من الله لأصحاب السريّة، فسُري عنهم وعن المسلمين ما كانوا فيه من الكرب والغمة. قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون، وعثمان والحكم أول من أسر المسلمون.

2- غزوة بدر العظمى، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان:

لقد كانت غزوة بدر أعظم غزوات الإسلام، إذ منها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق، أعزّ الله من حضرها من المسلمين والملائكة، أخزى الشيطان، وأذلّ الله بوقوعها الكفّار؛ بقتل صناديدهم وأسرهم. وسميت العظمى والثانية وبدر الفرقان وبدر القتال؛ لوقوعه فيها دون الأولى وقبل الآخرة.

أ- أسباب الغزوة وخروج الفريقان:

أ-1- **خروج رسول الله إلى العير**: ظل المسلمون يترقبون عودة قافلة قريش التي فلتت منهم في غزوة ذي العشيرة، وقد بعث رسول الله ﷺ دورية مكونة من طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد، وأمرهما بالاتجاه نحو الشمال يتحسّسان خبر العير، فوصلت هذه الدورية إلى الحوراء على البحر الأحمر، وهناك مكثت حتى مرّ بها أبو سفيان عائدا من الشام بالقافلة، وعند ذلك أسرع طلحة وسعيد وأخبرا رسول الله ﷺ بذلك، ويقال إن الرسول لم ينتظر قدوم الرسولين من مهمتهما، وقرر الخروج إلى طريق الشام؛ خشية أن تفوته العير في إيابها. ندب الرسول ﷺ المسلمين للعير، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلُكُموها»، ولم يستنفر الرسول ﷺ كل النّاس، بل طلب أن يخرج معها من كان ظهره حاضرا؛ لذا لم يُلم أحدا تخلف عنها؛ لأنهم ما خرجوا على قتال، وإنّما خرجوا للعير.

خرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وقيل ثمانية، واستخلف النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة في المدينة، ردّ الرسول ﷺ أبا لبابة وأمَّره على المدينة، وردّ عاصم بن عدي أيضا واستخلفه على قباء والعالية، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أبيض، وبين يدي رسول الله ﷺ رايتان سوداوان:

إحداهما مع على بن أبي طالب، والثانية مع سعد بن معاذ. وقد بلغ تعداد الجيش الإسلامي ما بين 313 و 317 رجلاً، منهم ما بين 82 إلى 86 من المهاجرين، و61 من الأوس و170 من الخزرج، معهم فَرَسان أحدهما للزبير بن العوام، والثاني للمقداد بن الأسود، وسبعون بعيراً، يتعقب الرّجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد. وكان أبو لبابة – قبل رجوعه – وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، فعندما جاء دوره في المشي، قالا له: نحن نمشي عنك، فقال لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»، وأصبح مكانه في زمالة الرسول ﷺ على البعير مرثد بن أبي مرثد الغنوي.

أ-2- **أبو سفيان واستنفار قريش**: كان أبو سفيان على حذر أن تقع العير في قبضة المسلمين، فأخذ يتحسّس الأخبار ويتسمّعها عندما دنا من الحجاز، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك وخاف العاقبة، إذ لم يكن معه من قريش في حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلا، وما يغني هذا العدد عن اللقاء. وعندما اقترب من بدر لقي مجدي بن عمرو وسأله عن جيش الرسول ﷺ، فأفاده مجدي بأنه رأى راكبين أناخا إلى تل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخيهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتّه، فعرف منه أنه من علائف المدينة، فأسرع تاركـًا الطريق الرئيس الذي يمرّ على يسار بدر، واتّجه إلى طريق الساحل غربـًا. وحينما تأكّد خروج النبيّ لاعتراضه؛ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالا، وأرسله إلى مكة يستنجد بقريش، وجاء ضمضم مسرعـًا إلى مكة، وعندما دخلها وقف على بعيره وقد جدّع أنفه، وحوّل رحله، وشق قميصه، وهو يصيح: "يا معشر قريش، اللّطيمة اللّطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.

وقبل مقدم ضمضم بخبر أبي سفيان بثلاث ليال، رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم، رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفضعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر وصيبة، فاكتم عنّي ما أحدّثك به، وقصت علية الرؤيا فقالت: رجلاً أقبل على بعير له، فوقف بالأبطح، فقال: يا آلَ غُدَر أنفروا لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ بمثلها، ومَثل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل، فأقبلت تهوي حتى ارفضّت، فما بقيت دار ولا بنية إلا ودخل فيها بعضها. لكن القصة فشت في مكة، وعلّق أبو جهل في شأنها وهو يخاطب العباس: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، فصدّق الله رؤيا عاتكة بعد ثلاث، بمجيء ضمضم يستنفر قريشـًا لصدّ المسلمين عن عيرهم.

فتجهز الناس سراعا، وخرجت قريش على بكرة أبيها لحماية عيرها ورجالها، ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب، فإنه أرسل مكانه العاص بن هشام مقابل ديْن كان عليه، مقداره أربعة آلاف درهم، و لم يتخلف من بطون قريش سوى بني عدي. وبلغ عددهم في بداية مسيرهم نحو ألف وثلاثمائة محارب، معهم مائة فرس وستمائة درع وسبعمائة جمل، بقيادة أبي جهل. وعندما خشوا أن تغدر بهم بنو بكر لعدواتها معهم، كادوا أن يرجعوا عمّا أرادوا، فتبدّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك المدلجي سيّد بني كنانة، وقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿**بطرا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله**﴾[الأنفال، 48].

ثم أرسل أبو سفيان قيس بن امرىء القيس إلى جيش قريش، وهم بالجحفة، يخبرهم فيها بنجاته وأنه أحرز العير، ويطلب منهم الرجوع إلى مكة. وهمّ جيش مكة بالرجوع، ولكن أبا جهل رفض ذلك، قائلا: "والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم بها ثلاثا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا"؛ فأطاعه القوم ما عدا الأخنس بن شريق، حيث رجع بقومه بني زهرة، وطالب بن أبي طالب؛ لأن قريشاً في حوارها معه، اتهمت بني هاشم بأن هواهم مع محمد صلى الله عليه وسلم. وساروا – جيش مكة – حتى نزلوا قريباً من بدر، وراء كثيب العقنقل يقع بالعدوة القصوى، على حدود وادي بدر، في أرض سهلة ليّنة.

أ–3– **مسير المسلمين إلى بدر**: خرج النبيّ ﷺ مع أصحابه على نقب المدينة، ثم على العقيق، ثم على ذي الحليفة، إلى أن وصل فج الروحاء، حتى إذا كان في عرق الظبية، وفيها لحق به بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزّغباء، فأخبراه خبر العير، ثم إلى الصفراء، ومنها إلى وادي ذفران، حيث أتاه خبرِ نَفْرة قريش ليمنعوا عيرهم. ثم ارتحل إلى بلد يقال لها الدّبّة، ثم نل قريبا من بدر، وهناك خرج الرسول هو وأبوبكر لغرض الاستكشاف، ولقيا شيخا فسألاه عن جيش قريش، فاشترط عليهما أن يخبراه ممن هما، فوافقا، وطلبا منه أن يخبرهما هو أولاً، فأخبرهما بأنه قد بلغه أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبره فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش المسلمين – وإن صدق الذي أخبره بجيش قريش فهم اليوم بمكان كذا – للمكان الذي به جيش قريش. ولما فرغ من كلامه قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرفا عنه، وتركاه يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق؟.

وفي مساء ذلك اليوم أرسل عليًّا والزبير وسعداً بن أبي وقاص في نفر من أصحابه لجمع المعلومات عن العدو، فوجدوا على ماء بدر غلامين يستقيان لجيش مكة، فأتوا بهما إلى الرسول ﷺوهو يصلي، وأخذوا في استجوابهما، فأفادا أنهما سقاة جيش قريش، فلم يصدقوهما، وكرهوا هذا الجواب، ظنّا منهم أنهما لأبي سفيان، إذ لا يزال الأمل يحدوهم في الحصول على العير، وضربوهما حتى قالا إنهما لأبي سفيان. وعندما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من صلاته عاتب أصحابه؛ لأنهم يضربونهما إذا صدقا، ويتركونهما إذا كذبا. ثم سألهما الرسول ﷺ عن مكان الجيش المكي، فقال: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، وسألهما عن عدد جيش مكة وعدتّه، فلم يستطيعا تحديد ذلك، لكنّهما حدّدا عدد الجزور التي تنحر يومياً بأنها ما بين التسعة والعشرة؛ فاستنتج الرسول ﷺ بأنهم بين التسعمائة والألف، وذكرا له من بالجيش من أشراف مكة، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

ب– الفريقان يقتتلان ببدر:

لمّا بلغ رسول ﷺ خروج قريش؛ استشار أصحابه، وقد خشي فريق منهم المواجهة في وقت لم يتوقعوا فيه حربا كبيرة، ولم يستعدوا لها بكامل عدّتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول ﷺ؛ ليقنعوه بوجهة نظرهم، وفيهم نزل قول الله تعالى: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحقّ وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحقّ بعدما تبين كأنما يساقون إلى**

الموت وهو ينظرون، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾[الأنفال، 5-7].

وتكلم قادة المهاجرين، وأيّدوا الرأي القائل بالسير لملاقاة العدو، منهم أبوبكر وعمر والمقداد بن عمرو، ومما قاله المقداد: "يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه"؛ وسُرّ النبيّ ﷺ من قوله. وبعد سماعه كلام قادة المهاجرين، قال: «أشيروا عليّ أيّها النّاس»، وكان بذلك يريد أن يسمع رأي قادة الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن نصوص بيعة العقبة الكبرى لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة، وأدرك سعد بن معاذ مراد الرسول ﷺ، فنهض قائلا: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول اله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللّقاء، ولعلّ الله يُريك منا ما تقر به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله؛ فسُرَّ رسول ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا: فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم».

نزل رسول الله ﷺ ببدر بالعدوة الدنيا، بأدنى ماء من بدر، يبادر المشركين ويحول بينهم وبين الماء، وهنا أبدى الحباب بن المنذر رأيه قائلاً: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم(قريش) فننزله ونغوّر(نخرّب) ما وراءه من القُلُب(الآبار)، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». وفعل ما أشار به الحباب بن المنذر. وعندما استقروا في المكان، بُني لرسول الله ﷺ عريش من جريد، فدخله النبيّ وأبوبكر، وقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشّحا بالسيف.

وبعد أن اتخذ الرسول ﷺ كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية، بات ليلته يتضرّع إلى الله تعالى أن ينصره، ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، وتقول الرواية: فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه؛ فأتاه أبوبكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[الأنفال، 9]. وقال لما نزلت: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾[الأنفال، 45]. ولما تنزّلت الملائكة للنصر ورآهم رسول الله حين أغفى إغفاءةً ثم استيقظ، وبشّر بذلك أبا بكر وقال: «أبشر أبا بكر هذا جبريل يقود فرسه على ثنايا النقع» يعني المعركة.

وأنزل الله تعالى في هذه الليلة مطراً طهّر به المؤمنين وثبت به الأرض تحت أقدامهم، وجعله وبالاً شديدًا على المشركين. وفي هذا قال تعالى: ﴿**وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**﴾، ولكنه –المطر – كان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدّم. ومن نعمة الله على المسلمين يوم بدر أيضـًا، أن غشِيهم النعاس أمنة منه، كما في صدر آية نعمة إنزال المطر، قال تعالى: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**﴾[الأنفال، 11]. روى في ذلك الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أن أبا طلحة، قال: غشينا النّعاس ونحن في مصافّنا(مواضع الصفوف) يوم بدر، فكنت فيمن غشيه النّعاس يومئذ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه، ولهذا قال ابن مسعود: النُّعاس في المصافّ من الإيمان، والنُّعاس في الصلاة من النفاق.

وزاد الله المؤمنين فضلاً بأن أوقع الخلاف في صفوف عدوّهم، فقد روى أحمد أن عتبة بن ربيعة أخذ يثني قومه عن القتال محذرا من مغبته؛ لأنه علم أن المسلمين سوف يستميتون، فاتهمه أبو جهل بالخوف، وليريه شجاعته، دعا أخاه وابنه وخرج بينهما داعيًا إلى المبارزة. وكان الرسول ﷺ قد رأى عتبة على جمل أحمر، فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا». وشاء الله أن يعصوه، وضاع رأيه وسط إثارة أبي جهل الثارات القديمة.

وفي صباح يوم الجمعة 17 رمضان السنة 2هـ طلع المشركون، وتراءى الجمعان، فأخذ النبيّ يقول: «هذه قريش قد أقبلت بِخيلائها وفخرها، تُحادُّك، وتُكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». وعندما وقف المسلمون في صفوف القتال، أخذ الرسول ﷺ في تعديل صفوفهم وفي يده قدح، فطعن به "سواد بن غزية" في بطنه؛ لأنه كان متنصلا من الصف، وقال له: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله: أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدك جلدي، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ثم أخذ في توجيههم ﷺ في أمر الحرب، قائلا: «إذا أكثبوكم(أي قربوا منكم) فارموهم واستبقوا نبلكم»، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم. وحرّضهم على القتال، قائلا: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، وفي رواية عند مسلم أنه عندما دنا المشركون قال النبيّ ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»؛ عندما سمع ذلك عمير بن الحُمام الأنصاري، قال: يا رسول الله، جنّة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ»، قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاءه أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل.

وطلب الرسول ﷺ من أصحابه، قبل بدء المعركة، ألا يقتلوا نفرا من بني هاشم وغيرهم؛ لأنهم خرجوا مكرهين، وسمىّ منهم أبا البختري بن هشام، الذي كان ممن سعى لنقض صحيفة المقاطعة ولم يؤذ النبيّ ﷺ، والعباس بن عبد المطلب. وقبل ابتداء القتال خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو

لأموتن دونه، وتصدّى له حمزة، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم حبا إلى الحوض مضرجا بدمائه ليبرّ قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

بعد هذا خرج ثلاثة فرسان من قريش يطلبون المبارزة وهم: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة، فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث – وأمهما عفراء – وعبد الله بن رواحة، فلم يقبل فرسان قريش بغير بني أعمامهم من المهاجرين، فأمر الرسول ﷺ عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي أن يبارزوهم. وكان عبيدة لعتبة، وعلي للوليد، وحمزة لشيبة. وقتل علي وحمزة صاحبيهما وأعانا عبيدة على قتل الوليد، واحتملا عبيدة الذي أثخنه عتبة بالجراح، وفي هؤلاء الستة نزل قول الله تعالى: ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربّهم**﴾[الحج، 19].

ثم أخذ الرسول ﷺ حفنة من الحصباء، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه»، اللهم ارْعب قلوبهم وزلزل أقدامهم، فما بقي أحد من القوم إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فشُغلوا بالتراب في أعينهم، وشُغل المسلمون بقتلهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿**وما رميت إذ ميت ولكن الله رمى**﴾[الأنفال، 17]. ونزل المسلمون ساحة المعركة بقوة إيمانية كبيرة، وشدّوا على المشركين، وأخذوا في اقتطاف رؤوسهم، وأمدّهم الله بالملائكة لينصروهم على عدوهم، كما في قوله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾[آل عمران، 123]، وقال تعالى: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾. في هذا الشأن، فقد روى مسلم: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيْزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرّ مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشقّ وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة». وروى أيضا، أن رجلا من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله، إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها، على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: اسكت، فقد أيّدك الله تعالى بملك كريم.

ورويت أحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين يوم بدر، ورد في الصحيح: جاء جبريل النبيّ ﷺ، فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة». ولقد أكرم الله عباده المؤمنين يوم بدر ببعض الكرامات، فقد روى أن عكّاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم جذلاً من حطب ليقاتل به، فإذا هو في يده سيفاً طويلاً، شديد المتن، أبيض الحديدة، "يُسمى العوْن"، فقاتل به يوم ذاك وفي المعارك الأخرى التي شهدها بعد ذلك، حتى قتل شهيداً. وروى البيهقي، أن قتادة بن النعمان أصيب في عينه، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعونها، وسألوا رسول الله، فقال: لا، فدعا به فغمز حدقته براحته، فكان لا يدري أيّ عينيه أصيبت، وفي رواية: كانت أحسن عينيه. ورُمي رافع بن مالك بسهم في عينه؛ ففُقئت عينه، فبصق فيها رسول الله ودعا له، فما آذاه منها شيء.

ت- مصرع الطغاة وانتصار المؤمنين:

شهدت بدر مصرع أغلب الطغاة من صناديد قريش، ومنهم فرعون هذه الأمة أبو جهل، وكان يحيط به أصحابه مثل الحرَجَة(الشجر الملتف)، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه؛ ولكن الله أراد غير ذلك، ففي الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: إني لفي الصفّ يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عمُّ، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أُخبرت أنه يسبُّ رسول الله ﷺ، وقال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفكما؟ فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله.

ولما وضعت الحرب أوزارها أمر رسول الله أن يُلتمس أبو جهل، وإن خُفي عليكم في القتلى أنظروا إلى أثر جرح قد أصابه في ركبته، من دفعٍ دفعته في مأدبة ابن جدعان ونحن غلامان، فجُحشت(خدشت) ركبته، لم يزل أثره به. قال ابن مسعود: فوجدته في آخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه فقلت: الحمد لله الذي أخزاك، قال: أعار على رجل قتلتموه، لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعبا يا رُوَيْعِيَ الغنم، لمن الدائرة، قلت: لله ورسوله، وضربه عبد الله ضربة، فحزّ رأسه، ثم وضعها بين يدي رسول الله، فقال: أبشر يا نبيّ الله بقتل عدو الله أبي جهل، وذكرت له يقول ابن مسعود: ما به من الآثار، فقال: ذلك ضرب الملائكة.

وأما أمية بن خلف، فقد تمكن عبد الرحمن بن عوف من أسره، وعندما رآه بلال معه، قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، وحاول عبد الرحمن أن يثنيه عن عزمه فلم يستطع، بل استنفر بلال الأنصار فلحقوا به معه وقتلوه، على الرغم من أن ابن عوف ألقى عليه نفسه وأمية بارك. ولقي الزبير بن العوام عبيدة بن سعيد بن العاص يُكنى أبا ذات الكرش، عليه لأَمَة كاملة لا يُرى منه إلا عيناه، فحمل عليه الزبير بحربته(العنزة)، فطعنه في عينه، فمات، فوضع رجله على الحربة، ثم تمطّى، فكان الجهد أن نزعها، وقد انثنى طرفاها. فسأله إياها رسول فأعطاه إياها، فلما قبض رسول الله، أخذها، ثم طلبها أبوبكر، ثم عثمان، ثم عمر، ثم آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، وكانت عنده حتى قتل.

وقد انجلت معركة بدر عن نصر كبير للمسلمين، ورجعت قريش إلى مكة منهزمين، إذ قتل منهم سبعين، وأُسر سبعين، ولم يقتل من المسلمين سوى أربعة عشر رجلا، ستة من قريش وثمانية من الأنصار. وروي أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش، فقذفوا في طوي(بئر) من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، قال: فلما ظهر على أهل بدر أقام ثلاث ليال، حتى إذا كان اليوم الثالث أمر براحلته، فشدت برحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، حتى قام على شفة الطوي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟»

قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وفي الصّفراء ضُرب عنق النّضر بن الحارث، وبعرق الظّبْية ضُرب عنق عقبة بن معيط.

ث- اختلاف المسلمين في الفيء وفي مصير الأسرى:

وقع خلاف بين المسلمين حول الغنائم؛ لأن حكمها لم يكن قد شرع يومذاك، وقد حكى عبادة بن الصامت ما حدث، قائلا: خرجنا مع رسول الله فشهدت معه بدر، فالتقى الناس، فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون ويقتلون، وأكبّت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله، فنزلت الآية: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾[الأنفال، 1]، فقسّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاء(على السواء). وقد أسهم الرسول ﷺ لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدرا لأعمال كُلّفوا بها في المدينة أو لأعذار مباحة، منهم عثمان بن عفان؛ لأنه كان يمرض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وكان تقسيم الغنائم في منطقة الصفراء في طريق العودة إلى المدينة. ثم أرسل رسول الله عبد الله بن رواحة بشيرا إلى العالية قباء، وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة أهل المدينة ليزفّ البشرى، وقد تلقوا النبأ بسرور بالغ مشوب بالحذر من أن لا يكون مؤكداً، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر، حين سوّينا التراب على رُقيّة ابنة رسول الله التي كانت عند عثمان رضي الله عنه، فوالله ما صدّقت حتى رأينا الأسارى.

وقد استشار الرسول ﷺ الصحابة في أمر الأسرى، فأشار أبوبكر بأخذ الفدية منهم بحجة أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، ورأى عمر قتلهم؛ لأنهم أئمة الكفر، ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر؛ فنزل القرآن موافقا لرأي عمر، وهو قوله تعالى: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم**﴾[الأنفال، 67]. وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم، وممن أخذ منه أربعة آلاف درهم أبو عزيز بن عمير، وأخذوا من العباس مائة أوقية عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو. وقد أطلق الرسول ﷺ سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد بن النعمان الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر.

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، جعل فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة. فقد روى أحمد عن ابن عباس، قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يوما يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث! يطلب بذحل بدر(أي بالثأر والعداوة) والله لا تأتيه أبدا. وقد استوصى النبيّ ﷺ بالأسارى خيراً، فقد حكى أبو عزيز بن عمير وهو بين رهط من آسريه الأنصار، أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى، حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فيستحي فيردّها على أحدهم، فيردّها عليه ما يمسها. وأسلم كثير من هؤلاء الأسرى على فترات مختلفة قبل فتح مكة وبعدها.

وأما حال مكة فهي تبكي قتلاها، وكان أوّل من قَدِم مكة بمصابهم الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي، الذي جعل يعدّد قتلى أشراف قريش؛ ولمّا تحققوه أهل مكة قطعت النساء شعورهن، وعُقرت خيولٌ كثيرة ورواحل. ورغم المصيبة، لكن قريش تركت النياح على قتلاها؛ وقالوا: لا تفعلوا، يبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم، وكل ذلك من تمام ما عذّب الله به أحياءهم في ذلك الوقت، وهو تركهم النوحَ على قتلاهم، فإن البكاء على الميّت مما يبلُّ فؤاد الحزين. وكان ممّن اشتد عليهم الخبر أبو لهب، الذي لم يعش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعَدَسة فقتلته، وتركه ابناه ثلاثا حتى انتَن. وكذا أبو سفيان بن حرب، كان نذر بعد بدر أنه لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو النبيّ عليه الصلاة والسلام.

ومن أهم نتائج غزوة بدر:

– قويت شوكة المسلمين عندما دوى انتصارهم في بدر في كل نواحي الجزيرة العربية؛ وذلك لأن قريشا كانت لها مكانة رفيعة بين العرب كافة.

– ذهول قريش أمام الصدمة المفاجئة، فصممت على الانتقام من المسلمين، وأخذت تعدّ نفسها ليوم أحد، ولم تنته الحرب بين الطرفين إلا بفتح مكة.

– بدأ النفاق في المدينة يظهر جليا بعد بدر، واستمر المنافقون في أذاهم للمسلمين، وكان كثيرا ما ينزل القرآن يفضح أكاذيبهم.

– بالرغم من المعاهدة التي بين المسلمين واليهود قبل بدر، أخذ اليهود يظهرون عداوتهم للمسلمين بعد بدر حسدا وبغيا وأول من أظهر بغيه بني قينقاع.

– دخل الكثيرون في الإسلام بعد بدر، كما كانت بدر شرفا ومنقبة لمن حضرها من المسلمين والملائكة.

3 – **النشاط العسكري بين بدر وأحد:**

ابتهج المسلمون بالنصر المؤزر الذي أكرم الله عزّ وجل به نبيّه محمد ﷺ في غزوة بدر، والذين كانوا أشدّ استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك المشركين الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة، أو الذين كانوا يرون عزّة المسلمين وغلبتهم ضربا قاصما على كيانهم الديني والاقتصادي وهم اليهود، هذان الفريقان يحترقان غيظا وحنقا على المسلمين. وهناك عدوّ ثالث من أهل المدينة ادعى الإسلام نفاقا وهم عبد الله بن أبي وأصحابه، ولم تكن هذه الفئة أقل غيظا من الأوليين. وواجه النبيّ ﷺ في هذه المرحلة خصما رابعا، لم يمكن له بهم سابق عهد، وهم البدو الضابرون حول المدينة، حلفاء قريش، إذ بعد أن أُغلق طريق الشام التجاري في وجوههم؛ فكّر القرشيون في طريق صحراوي آخر من مكة إلى نجد، ومنها إلى العراق والشام. ونتعرف على سياسة مواجهة النبيّ ﷺ لتلك التحديات والمؤامرات التي حيكت ضده، من خلال تلك البعوث التي أرسلها والغزوات التي خاضها، في النقاط الآتية.

– **محاولة اغتيال النبي ﷺ**: جلس عُمير بن وهب الجُمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وممّن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو

بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكرا أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إنْ في العيش بعدهم خير؛ قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا ديْنٌ عليّ ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علّة: ابني أسير في أيديهم؛ فاغتنمها صفوان وقال: عليَّ ديْنك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أُواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم؛ فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال: أفعل.

أُمر عمير بسيفه، فشُحذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة؛ فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوّهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدوّ الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرّ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله، هذا عدوّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه؛ قال: فأدخله علي، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمّالة سيفه فقبض بيده عليها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون؛ ثم دخل به على رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه؛ قال: أصدقني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، وذكر له ما دار بينهما من حوار، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، وأسلم، فقال رسول الله ﷺ: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا. وبعدها أخذ يدعو إلى الإسلام في مكة وأسلم على يده كثير.

– **غزوة بنو سُلَيْم أو قرقرة الكُدْر**: لقد وثّق القرشيون ما بينهم وبين بنو سُليم وغطفان، يستخدمونهم في تأمين متاجرهم إلى العراق ومنها إلى الشام، وأغروهم بمحاربة الرسول ﷺ، وكان من سياسته الحكيمة في محاربة هذه القبائل وغيرها في هذه المرحلة مبدأ المبادأة. ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة بعد بدر، لم يُقم فيها إلا سبع ليال، حتى سمع أن بني سليم وبني غطفان تحشد قواتها لغزو المدينة، استعمل على المدينة سباع بن عُرْفُطَة الغِفاري أو عبد الله ابن أم مكتوم، وحمل لواءه ﷺ علي بن أبي طالب، ثم خرج ﷺ لمباغتتهم، فبلغ من مياههم يقال له الكُدْر، فلم يجد في المحالّ أحدا، فأقام عليه ثلاث ليال ﷺ، ولم يلق كيدا، وظفر من النّعم خمسمائة بعير، فانحدر به إلى المدينة، فاقتسم الغنائم بصِرار ، فأخرج خمسَه وقسّم أربعة أخماس على المسلمين، فأصاب كلّ رجل منهم بعيران، وكانوا مائتي رجل، وغاب رسول ﷺ خمس عشرة ليلة، فأقام في المدينة بقية شوال وذا القعدة، وأفدى في إقامته تلك جُلّ الأسارى من قريش.

– **غزوة السَّوِيق**: وسببها أن فَلَّ المشركين لمّا رجعوا إلى مكة من بدر موتورين محزونين، حرّم أبو سفيان على نفسه الدُّهن، ونذر ألاّ يمسّ رأسه من جنابة؛ حتى يثأر من رسول الله ﷺ وأصحابه بمن أُصيب من المشركين يوم بدر، فخرج في ذي الحجة في مائتى راكب من قريش؛ ليبرّ يمينه، سار نحو المدينة، حتى نزل ليلا عند بني النّضير، وبات ليلة واحدة عند "سلاَّم بن مِشْكَم اليهودي" سيّد بني النَّضير وصاحب كنزهم، فسقاه الخمر، وبَطَنَ له من خبر الناس، فلما أصبح، بعث رجالا من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية العُرَيْض في طرف المدينة، فقطعوا أصواراً(النخل مجتمعة) من النخل، وقتلوا

رجلا من الأنصار وحليفا له في حرْث وهو مَعبد بن عمرو، ورأى أبو سفيان أن يَمينه قد حُلَّت، ثمّ انصرفوا راجعين. ولما علم بهم الناس، خرج رسول الله ﷺ في طلبهم، واستعمل على المدينة أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، حتى بلغ قرقرة الكدر ثم انصرف راجعا، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد غنموا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الطريق يتخفّفون منها للنجاة. وحين رجع رسول الله ﷺ قال ممن كان معه من المسلمين: يا رسول الله أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال: نعم. كان غاب خمسة أيام. وعن سبب تسمية هذه الغزوة باسمها: لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السَّويق، فهجم المسلمون على سويق كثير، فسُميت غزوة السّويق.

– **غزوة غطفان بذي أمَرّ**: ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السّويق، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبا منها، ثم غزا نجدا، يريد غطفان، وهي غزوة ذي أَمَر في محرم سنة 3هـ، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، وذلك أنه لمّا بلغ رسول الله ﷺ أن جمعا من بني ثعلبة ومحارب بذي أمَرّ قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ، وجمعهم رجل يقال له: دُعثور بن الحارث من بني محارب، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين، ولمّا سمع القوم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، فهربوا في رؤوس الجبال، فبلغ ماء يقال له: ذو أَمَرّ، فعسكر به، وأصاب النبيّ ﷺ وأصحابه مطر كثير؛ فابتلّت ثياب رسول الله، فنزل هناك تحت شجرة ونشر ثيابه لتجفّ، واضطجع، حينها جاءه دُعثور بن الحارث سيّد القوم وأشجعهم، ومعه سيف، فقام على رأس رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: الله، فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ فقال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا اله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله. وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم انصرف ولم يلق حربا، بعد أن أقام هناك صفرا كله من السنة 3هـ، وقيل كانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

– **غزوة الفُرُع من بُحران**: وسببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بني سُليم بن منصور تجمعوا للإغارة على المدينة، وقيل خرج يريد قريشا، فرأى أن يعاجلهم، فخرج في ثلاثمائة رجل من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وسار حتى بلغ بُحران، معدنا بالحجاز من ناحية الفُرُع – وهي قرية ناحية المدينة على الطريق التجارية بين مكة والشام – فوجد القوم قد تفرّقوا في مياههم، فأقام شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى سنة 3هـ، ثمّ رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا.

– **غزوة بني قينقاع**: وهم قوم عبد الله بن سَلاّم، وكانوا أشجع يهود، فلما كان يوم بدر كان بنو قينقاع أوّل يهود نقضوا العهد وأظهروا البغي والحسد، وقطعوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ فجمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم؛ قالوا: يا محمد، إنك ترى أنّا قومك! لا يغُرّنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد، قدمت امرأة من العرب بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا منها، فصاحتْ؛ فوثب رجل من المسلمين على

الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع؛ وتبرّأ عبادة بن الصامت من حلفهم إلى رسول الله ﷺ، وتشبّث به عبد الله بن أبي.

وتحصّن اليهود في حصنهم؛ فسار إليهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم أشدّ الحصار، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب؛ فنزلوا على حكمه، واستعمل الرسول ﷺ على المدينة في محاصرته إيّاهم أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، ولواؤه بيد حمزة بن عبد المطلب، وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد، فأمر فرُبطوا، فكانوا يكتفون كتافا، واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلِمي، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ – وكانوا حلفاء الخزرج – فأعرض عن؛ فأدخل يده في جَيْب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللا(تلونا)، ثم قال: ويحك أرسلني؛ قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر؛ فقال رسول الله ﷺ: هم لك. وقال ﷺ: خلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم، ثم أمر بإجلائهم، وغنم ما تركوه من سلاح كثيرة وآلة صياغتهم، وكان الذي تولى إخراجهم من المدينة بذراريِّهم عبادة بن الصامت، فخرجوا إلى أَذْرِعات الشام، وهلك هناك أكثرهم.

- **سرية زيد بن حارثة (القَردَة)**: وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أُحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة 3هـ، وفيها بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة يعترض العير لقريش التي تسلك طريق العراق نحو الشام، بقيادة صفوان بن أمية. وقد علم أحد رجال استخبارات الجيش الإسلامي وهو سليط بن النّعمان خبر سفر هذه القافلة؛ فسارع إلى إبلاغ رسول الله ذلك، وأطلعه على تفاصيل الخطة الجديدة التي رسمتها قريش لمعاودة تجارتها مع الشام، وقد سمع سليط بالخبر خلال جلسة خمر – قبل أن تُحرّم – في حي يهودي، ضمّت الجلسة "نُعيم بن مسعود الأشجعي" ويهودي اسمه "كنانة بن أبي الحُقيق"، ولما أخذت الخمر من رأس نُعيم، تحدّث بالتفصيل عن قضية العير، وسلوك القرشيين بها عبر الطريق الشرقية، وكان قد علم بخبر العير حينما كان في مكة.

تجهّز صفوان بن أمية، وخرج ومعه مال كثير، فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم، وأرسل معه أبو زمعة بن الأسود بثلاثمائة مثقال ذهب، وبعث معه رجالا ببضائع، وكان دليلهم "فُرات بن حيّان العِجليّ" من بني بكر، فخرج بهم على ذات عِرق، طريق العراق، فأدركهم زيد ولقيَهم في مائة راكب، على ماء يدعى القَرْدَة من مياه نجد، فأصاب العير وما فيها، وأعجزه الرجال، وقدموا بالعير على رسول الله؛ فخمّسها فبلغ الخمسُ قيمة عشرين ألف درهم، وقسم الباقي على أهل السريّة، وأُسر فُرات بن حيّان، فأتي به النبيّ ﷺ، فقيل له: إن تُسلم تُترك من القتل؛ فأسلم فتركه رسول الله ﷺ.

4- غزوة أُحد في السنة الثالثة للهجرة:

عرفت هذه الغزوة باسم الجبل الذي وقعت عنده، ويقع في شمال المدينة، وكان يرتفع 128م أما الآن فيرتفع 121م فقط بسبب عوامل التعرية، ويبعد عن المسجد النبوي 5.5 كم بدءًا من باب المجيدي أحد أبواب المسجد النبوي،

ويتكون أُحد من صخور غرانيتية حمراء وله رؤوس متعددة، ويقابله من جهة الجنوب جبل صغير يسمى "عينين"؛ وهو الذي عُرف بعد المعركة بجبل الرّماة، وبين الجبلين واد عُرف بوادي قناة. وقعت هذه الغزوة – على أشهر الأقوال كما عند الطبري – بهذا الجبل يوم السبت للنصف من شوال.

أ- **أسباب الغزوة واستعدادات طرفيْ القتال:** لمّا أُصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعِيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بد، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا، ونحن طيّبو أنفس إن تُجهّزوا بربح هذه العير جيشا لمحمد، ففعلوا؛ وفيهم، أنزل الله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون**﴾[الأنفال، 36].

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ، واستنفروا حلفاءهم من الأحابيش، والقبائل المنتشرة حول مكة من كنانة وأهل تهامة، وعبأوا القوى لهذا الاستنفار، حتى تكوّن جيش تعداده ثلاثة آلاف محارب. وأما سلاح النقليات في هذه الحملة فقد كان ثلاثة آلاف بعير، ومعهم من سلاح الفرسان مائتا فرس، وأما سلاح الوقاية فقد كان له منه 700 درع. وقد انتخبت قريش أبا سفيان بن حرب قائدا عاما للجيش، كما أعطت قيادة سلاح الفرسان لخالد بن الوليد بمعاونة عكرمة بن أبي جهل، كما أسندت مهمة حمل اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة. وزيادة من قريش في التصميم على القتال؛ ولئلا يحدّث أحد منهم نفسه بالفرار من المعركة، استصحب قادة قريش معهم نساءهم إلى المعركة، وعددهن خمس عشرة امرأة، منهن: هند بنت عتبة زوج أبو سفيان. ودعا جبير بن مُطْعم غلاما له حبشيا، يقال له وحشي، يقذف بالحربة قلّما يخطئ بها، قال: اخرج مع الناس، فإن قتلت حمزة عمِّ محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق. ثم خرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها نحو المدينة، فنزل الجيش قريبا من جبل أُحد يقال له: عينين.

سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، شُدِّدت الحراسة على المدينة، وبات سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة، في ليلة الجمعة يحرسون رسول الله ﷺ. ورأى عليه الصلاة والسلام تلك الليلة: كأنه في درع حصينة، وكأن في ذباب سيفه ثُلما، وكأن بقرا تذبح، فأخبر بها أصحابه وأوّلها، فقال: أما الدرع الحصينة فهي المدينة، وأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثّلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجلٌ من أهل بيتي يقتل. فكان رأي رسول الله ﷺ، أن لا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، واستشار أصحابه في الخروج؛ فأشار عليه بن سلول المنافق أن لا يخرج، وكان ذلك رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، وأشاروا بل ألحُّوا عليه بالخروج؛ فنهض النبيّ ﷺ ودخل بيته، ولبس لأْمَتَهُ، وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك، وقالوا: أكرهنا رسول الله على الخروج، فقالوا: يا رسول الله، إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال النبيّ ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوِّه». وأعطى رسول الله ﷺ اللواء لمصعب بن عمير، وجعل على

المجَنِّبَتَيْن الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو، ومعهم فرسان ومائة دارع، ولبس رسول الله ﷺ درعين. وتعبّت قريش للقتال، وجعلت على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

ب- **الجيشان يقتتلان**: خرج يوم الجمعة في ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة، فلما صار بين المدينة وأحد، انسحب المنافق عبد الله ابن أبي بن سلول بثلاثمائة من المنافقين؛ بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضا على قرار النبيّ بالخروج بقوله: أطاعهم وعصاني. وقد تقدم الجيش الإسلامي إلى ميدان أحد، واتخذ مواقعه بموجب خطة مُحكمة، حيث نظّم الرسول ﷺ صفوف جيشه جاعلا ظهورهم إلى جبل أحد مستقبلا المدينة، وجعل خمسين من الرماة بقيادة "عبد الله بن جبير" فوق جبل عيْنَيْن المقابل لأحد؛ لحماية المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم، وشدّد عليهم بلزوم أماكنهم وقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم، هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنّبل؛ لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم، وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات، تاركين الوادي لجيش قريش الذي تقدم وهو يواجه أُحد وظهره إلى المدينة.

التقى الجمعان صباح يوم السبت من شوال، فكان أوّل من أنشب الحرب بينهم أبو عامر الفاسق، واشتد القتال بين الجيشين، ونساء المشركين يضربن الدفوف ويحرّضن ويذكّرنهم بقتلى بدر. وقد أبدى المسلمون بطولة فائقة في هذه المرحلة، وتراجع المشركون إلى معسكرهم منهزمين؛ بعدما قُتل أصحاب لوائهم العشرة. وهذا رسول الله ﷺ يأخذ سيفا ويقول: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: «فمن يأخذه بحقّه؟» قال: فأحجم القوم، فقال سِمَاك بن خَرَشة أبو دجانة: أنا آخذه بحقّه. قال: فَأَخذَه، فَفَلق به هَامَ المشركين؛ أي، شق رؤوسهم. وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الأبطال، إلى أن قتله وحشيّ بحربته غيلة، وأبلى يومئذ أبو دجانة الأنصاري، وطلحة بن عبيد الله، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن النّضر، وسعد بن الربيع وغيرهم، واستشهد آخرون في هذه المرحلة الأولى من القتال، منهم حامل الراية مصعب بن عمير، ولما استشهد أخذ علي بن أبي طالب اللواء.

وكانت الدولةُ أوّل النهار للمسلمين على الكفار، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلمّا رأى الرماة هزيمتهم، تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وقالوا: الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة، وأخلو الثّغر، وكرّ فرسان المشركين، فوجد الثَّغر خاليا؛ فأحاطوا بالمسلمين، وحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم، وانتقضت واضطربت صفوف المسلمين، فأكرم الله من أكرم بالشهادة، وخلَصَ المشركون إلى رسول الله ﷺ، فجُرح وجهه، وكسرت رباعيّتَه اليمنى، وكُلِم(جُرح) في وجنتيه، وضُرب على شقّه الأيمن، وكسرت البيضة على رأسه، وسقط في حفرة من الحفر التي كان "أبو عامر الفاسق" يكيد بها للمسلمين، فأخذ عليٌّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله، وكان قد تولى أذاه ﷺ عتبة بن أبي العاص، وعمرو بن قمئة، بل وأشاع الأخير أنه قد قُتل ﷺ؛ ففرّ كثير من المسلمين من ميدان القتال، وانتحى جانبا فجلس دون قتال، في حين آثر آخرون الموت على

الحياة بعد فقد رسول الله ﷺ، ومنهم: أنس بن النّضر الذي قاتل حتى قتل، وُجد في جسده بضع وثمانون ضربة ورمية وطعنة. وكان أوّل من عرف بأن الرسول ﷺ حيٌّ هو كعب بن مالك، فنادى في المسلمين يُبشرهم، فأمره الرسول بالسكوت لئلا يفطن له المشركون.

وقد صمدت فئة قليلة من المسلمين حول الرسول ﷺ الذي ثبت في الميدان، منهم: طلحة بن عبيد الله من السابقين الأولين، وكان الصدّيق أبوبكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كلّه لطلحة، إذ شُلّت يده وهو يَقي بها النبيّ ﷺ يوم أحد. ومنهم سعد بن أبي وقاص، نثل له رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال له: «ارم فداك أبي وأمي»، يقول عليّ ما رأيت النبيّ ﷺ يفدي رجلا بعد سعد. ومنهم أبو طلحة الأنصاري، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد القد، كسّر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه الجعبة من النّبل، فيقول: «انشرها لأبي طلحة». فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول له أبو طلحة: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. ومنهم أبو دجانة، فقد ترّس بنفسه على رسول الله ﷺ، فحنى ظهره عليه، والنّبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح. ومن النساء من أبلت البلاء الحسن في الدفاع عن رسول الله ﷺ، وهي البطلة "أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية"، وتذكر أنها جاءت أول النهار إلى ميدان المعركة تحمل سقاء فيه ماء، فانتهت إلى رسول الله ﷺ وانحازت إليه بعدما داهمه القوم، فباشرت القتال تذبُّ عنه بالسيف وترمي القوس، حتى خلصت إليها الجراح، وقد أصابها ابن قمئة أقمأه(أذله) الله.

ت- **نتائج الموقعة**: لما وقعت الهزيمة بسبب مخالفة أمر الرسول، وأصيب من أصيب من المسلمين، انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللاّتي كن معها إلى قتلى المسلمين، يمثّلن بهم بحقد وغيظ وشراسة، فصرن يجدعن الآذان والأنوف، ويبقرن البطون، حتى أن هندا بقرت عن كبد سيّد الشهداء حمزة فلاكتها(مضغتها) فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها. وصنعت هند من الآذان والأنوف خلاخيل وأقراطا وقلائد، وأعطت وحشيا قلائدها وخلاخيلها وأقراطها مكافأة له على جريمته النكراء، بل بلغ بأبي سفيان أن صار يضرب في شدق سيّد الشهداء حمزة برمحه ويقول: ذُق يا عاق وهو لحما ميّتا. ولما خرج رسول الله ﷺ يتفقّد القتلى، ويتلمّس عمّه حمزة، فوجده قد مُثِّل به؛ فحزن لذلك حزنا شديدا وقال: لن أصاب بمثلك أبدا.

وقد استشهد في أُحد من خيار المسلمين حوالي سبعين، منهم أربعة مهاجرين، والباقي من الأنصار، وقُتل من المشركين ثلاثة وعشرون كافرا، ويفيد البعض بأنهم سبعة وثلاثين. فمن الشهداء: عبد الله بن جحش، كان قد مثّل به وسمّيَ: المجدّع في الله. وقد أبى عمرو بن الجموح – وكان أعرج شديد العرج مما يسقط عنه الجهاد – إلا أن يشهد المعركة مع أبنائه الأربعة طلبا للشهادة، فقال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن قتلت أطأ بعرجتي هذه الجنة؟ قال: نعم، قال: فوالذي بعثك بالحق لأطأ بها الجنة اليوم إن شاء الله، ثم قاتل حتى قتل. واستشهد حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة وهو جُنُب، وكان عروسا ليلة أُحد، فسمع نداء الجهاد؛ فعجّل بالخروج، ولم يغتسل، فقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة»، وقتل في أُحد "مخيريق" الذي كان من علماء يهود بني النضير،

وقد أوصى بأمواله إن قُتل للرسول ﷺ، فقبلها. ومنهم عبد الله بن جبير أمير الرماة، وقد ذكَّرَ من كان معه بوصية رسول الله ﷺ، وأبى أن يبرح هو ومن وافقه حتى قُتلوا شهداء.

ورغم ما أصاب المسلمين من جراح، وما لحق بالرسول ﷺ من أذى، فقد استمر القتال بين الطرفين وأجهد الجانبين، وقد بدأ رسول الله بالانسحاب نحو شعاب أُحد، وقد لحق به المسلمون، حتى صعد في شعابه وتمكّن المسلمون من صدِّ المشركين عنه، وقد ثبت في الصحيحين أن الله تعالى أرسل جبريل وميكائيل من الملائكة ليقاتلا دفاعا عنه، فعن سعد، قال: «رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أُحد رجلين عليهما ثياب بياض، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام»؛ لأن الله تعالى تكفّل بعصمته، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال. وقد يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، فكفّوا عن مطاردة المسلمين في شعاب أُحد، وقد واعد ابن سفيان المسلمين لحرب أخرى بعد عام، وأنهم وافقوا على الموعد.

وما إن غادرت قريش المكان، حتى أمر رسول الله ﷺ بدفن الشهداء، وقد جاء في الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان النبيّ ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيّهم أكثر أخذا للقرآن»، فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللّحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» وأمر بدفنهم في دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصل عليهم. وقد دُفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وحمل بعض الشهداء أهلوهم؛ ليدفنوهم في المدينة، فأمرهم الرسول ﷺ بدفنهم في أماكن استشهادهم بأحد. وفي الغزوة لم يؤسر أحد من المسلمين، أما قريش فقد أُسر منهم أبو عزّة الشاعر فقتل صبرا؛ لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده عندما منَّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل بأُحد. كما قَتَل رسول ﷺ بيده أُبي ببن خلف، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ: إن عندي فرسا أعلفها كلّ يوم لعلّي أقتلك عليها، فقال له رسول الله ﷺ، بل أنا أقاتلك عليها، فلمّا كان يوم بدر أقبل أبي بن خلف يركض بفرسه تلك حتى دنا من الرسول ﷺ، فقام النبيّ بِحَرْبَة في يده فرمى بها أُبي فكَسرت الحربة ضلعا من أضلاعه، وقيل خدشه في عنقه خدشا غير كبير، فمات بعدها في الطريق وهم قافلون إلى مكة، فدفنوه.

بعد أن انتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم الطويل – السبت من شوال – رجع إلى المدينة، وبات المسلمون في المدينة ليلة الأحد يداوون جراحاتهم، وهم في حالة الطوارئ، يتناوبون على حراسة أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة، إذ كانت تلاحقهم الشبهات من كل جانب، وبات رسول يفكر في شأن فرضية رجوع المشركين إلى المدينة؛ لأنهم لم يستفيدوا شيئا من النصرة والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فصمّم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش.

5 – غزوة حمراء الأسد:

لم تكن غزوة حمراء الأسد غزوة مستقلة، وإنما هي جزء من غزوة أُحد وصفحة من صفحاتها الهامة، إذ بعد أن صلّى رسول الله ﷺ صُبح الأحد اليوم الموالي لغزوة أُحد، أمر بلالا أن ينادي أن رسول الله يأمركم بطلب عدوّكم، ولا

يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس، واستجاب المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يُحلّ فدفعه إلى علي ابن أبي طالب، ويقال إلى أبي بكر، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وخرج رسول الله وهو مثقل بالجراح والمسلمون معه حتى بلغ حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكر هناك، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة، وكان المسلمون يوقدون في تلك الليالي خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد. والنبيّ بحمراء الأسد مرّ به "معبد بن أبي معبد الخزاعي"، وهو يومئذ مشرك – وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم سلْماً للنبيّ ﷺ – فقال: أما والله يا محمد لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوَددنا أن الله عافاك وأعلى كعبك، وكان معبد قد رأى خروج رسول الله ﷺ والمسلمين إلى حمراء الأسد. ولما انصرف المشركون راجعين إلى مكة تلاوموا في الطريق، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكتهم وحِدَّتهم، ثم تركتموهم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم؛ ولهذا أمر رسول ﷺ أبي معبد أن يلحق بأبي سفيان، فيخذِّله، فلحقه بالروحاء، فأخبرهم بخروج رسول الله ﷺ في طلبهم، وأنه في جمع لم أر مثله قطّ، ففتَّ ذلك في أعضاد قريش، وقد كانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة؛ فكسَرهم خروجه ﷺ، فتمادوْا إلى مكة.

6– السرايا والبعوث بعد أُحد:

كان لمأساة أُحد أثر سيء على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين؛ حيث ظن اليهود أن المسلمين أصبحوا ضعفاء بعد أُحد، فلا بدّ من انتهاز الفرصة لأخذ ثارات إخوانهم بني قينقاع وثأر كعب بن الأشرف، وأخذوا يحيكون المؤامرات ويخلقون المشاكل للمسلمين؛ لذا كان لزاما على المسلمين أن يعيدوا الكرّة بالتطهير العام، حتى يعيدوا النظام إلى صفوفهم، ويستعيدوا السيطرة الكاملة على المدينة وما حولها وعلى المشركين من قريش والقبائل الأخرى. وكان من نتائج غزوة أُحد أن تجرأ الأعراب حول المدينة على المسلمين، وظهر ذلك في التجمعات التي قام بها بنو أسد وبنو هذيل؛ مستهدفين غزو المدينة طمعا في خيراتها، وانتصارا لشركهم ومظاهرة لقريش وتقرباً إليها، وفي الفقرات الآتية نتتبع ما جرى بين الطرفين.

أ– **سرية أبي سلمة بن عبد الأسد**: لما استهلّ هلال المحرم من السنة الرابعة للهجرة، بلغ رسول الله ﷺ أن طلحة وسلمة ابني خُويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوان بني أسد بن خُزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ؛ فدعا النبيّ أبا سلمة، وعقد له لواءً وبعث معه مائة وخمسين رجلا – ومعهم الوليد بن زهير الطائي دليلا وكان خرِّيتا، وهو الذي قَدِم بخبر بني الأسد – وقال: سِرْ حتى تنزل أرض بني أسد فأغِر عليهم قبل أن تَلاقى عليك جموعهم، فخرج، فأَغذَّ السير، وانتهى إلى أدنى جبل قَطَن، فأغار على سَرْح لهم، فضمّوه وأخذوا رِعاءً لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم، وفرّق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق في طلب النّعم والشاء، فآبوا إليه سالمين قد أصابوا إبلا وشاءً ولم يلقوا أحدا، فانحدر أبو سلمة بذلك كله، وأقبل راجعا إلى المدينة، فأعطى للذي دلّهم نصيبا وافرا من المغنم، وأخرج صَفِيَّ رسول الله ﷺ وخَمّس الغنيمة، ثم قسّمها بين أصحابه.

ب- **سريّة عبد الله بن أُنيْس**: وفي الخامس من شهر محرم في يوم الاثنين، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيْس؛ ليقضي على خالد بن سفيان الهذلي ثم اللّحياني الذي أخذ يحشد الجموع لحرب المسلمين، وكان عبد الله لا يعرفه، فقال صفه لي يا رسول الله ﷺ: فوصفه له، واستأذن رسول الله بأن يقول، فأذن له، فأخذ سيفه وخرج، حتى كان ببطن عُرَنة – واد قرب عرفات – لقيه يمشي ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه، فعرفه بنعت رسول الله ﷺ، فاقترب الهذلي من عبد الله وقال: من الرجل، فأجابه: رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمّد فجئتك لأكون معك، قال: أجل إنّي لأجمع له، فمشى معه واستحلى حديثه، حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه، ولما هدأ الناس وناموا قتله وحزّ رأسه ثم قفل راجعا إلى المدينة، حتى قدِم على رسول الله ﷺ وهو في المسجد، يقول عبد الله: فلمّا رآني قال: أفلح الوجه، فقلت: أفلح وجهك يا رسول الله ﷺ، وأخبره خبره، فدفع إليه المصطفى ﷺ عصًا وقال: «هذه آية بيني وبينك يوم القيامة»، فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوها في كفنه ففعلوا، وكانت غيبته ثماني عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسبع بقين من محرم.

ت- **سريّة الرَّجِيع**: جرت وقائعها في صفر من السنة الرابعة للهجرة، وكان سببها أن رهطا من عَضَل والقَارة قدموا للنبيّ وطلبوا أن يبعث معهم نفرا من يفقهوننا في الدّين ويقرئوننا؛ فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرا ستّة من أصحابه، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح، فانطلقوا حتى صاروا على ماء الرّجيع بين عسفان ومكة، غدروهم واستصرخوا عليهم حيًّا من هُذيل يقال لهم: بنو لِحْيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام حتى لحقوهم، فلما حسّ بهم عاصم وأصحابه، لجؤوا إلى جبل، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا، أن لا نقتل منكم رجلا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهم أخبر نبيّك عنّا، وقاتلهم و ومرثد وخالد بن البُكير حتى قتلوهم، ونزل إليهم خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنّة وعبد الله بن طارق، فأوثقوهم، فقال عبد الله: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكّة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بأُحُد، فمكث عندهم أسيرا، ولما كان من خُلقه وتقواه تقول إحدى بنات الحارث: ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عِنَب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله خبيبا. ثم خرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تقولوا جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل، ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا؛ فقام إليه عقبة بن الحارث فقتله.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظُّلّة(السحابة) من الدَّبْر(ذكر النحل)، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. ولابن إسحاق وغيره رواية فيها أكثر تفصيل، ومفادها، فلمّا أرادت هذيل أخذ رأس عاصم بن ثابت؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهيد التي نذرت لمن جاء برأسه مائة ناقة، وكان قد قتل ابنيها مسافع وجلاس ابني طلحة العبدري يوم أحد: لئن قَدرت على رأس عاصم لتشربن في قِحْفه – وهو ما انفلق من الجمجمة فبان – الخمر، فمنعه الدّبر- وقيل صغار الجراد -، فلما حالت بينه وبينهم،

قالوا دعوه يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي؛ فاحتمل عاصما فذهب به، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لا يمسّه مشرك، ولا يمس مشركا أبدا تنجسا.

ث- **سريّة بئر معونة**: كانت في صفر من العام الرابع للهجرة، وهي مأساة أخرى أشدّ وأفضع من الأولى، وفيها، أن النبيّ ﷺ أتاه قوم من رِعْل، وذَكوان وعُصيّة، وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم، «فأمدّهم النبيّ ﷺ بسبعين من الأنصار»، قال أنس رضي الله: كنا نسميهم القرّاء، يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم، حتى بلغوا بئر معونة، غدروا بهم وقتلوهم، فبلغ النبيّ ﷺ «فدعا عليهم شهرا في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت»، وقد أنزل الله تعالى لنبيّه ﷺ في الذين قتلوا - أصحاب بئر معونة - قرآنا قرأناه حتى نُسخ بعد: "بلِّغوا قومنا فقد لقينا ربّنا فرضي عنا ورضينا عنه". ويضيف أنسا: «ما رأيت رسول الله ﷺ وَجدَ على سريّة ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة».

ولابن إسحاق رواية أخرى حول هذه السريّة يقول: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد؛ فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو المُعْنِق؛ ليموت في أربعين رجلا من أصحابه، من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فلما نزلوها بعثوا حرام بن مِلْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن الطفيل؛ فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدا وجوارا، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصيّة ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق الموت؛ فارتُثّ من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا، رحمه الله.

وكان في سرح المسلمين عمرو بن أمية الضَّمري والمنذر بن عقبة، فرأيا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنا: فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكنّي ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرا، فلما أخبرهم أنه من مضر، أطلقه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه. فخرج عمرو بن أمية، حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر قال ابن هشام: ثم من بني كلاب، حتى نزلا معه في ظل هو فيه، وكان مع العامريْين عقدٌ من رسول الله ﷺ وجوار، لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهم حين نزلا، ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر فأمهلهما، حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن

أمية على رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما» وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود، وهذا الذي صار سببا لغزوة بني النضير.

- **غزوة بني النضير:**

وسببها أنّ عامر بن الطفيل أرسل إلى النبيّ ﷺ، يطلب دِيّة العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش أحدهم، فصعد ليُلقي عليه صخرة، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضوان الله عليهم، فأتي رسول الله ﷺ الخبر من السماء؛ بما أراد القوم، فقام وخرج راجعـًا إلى المدينة، فلما استلبث النبيّ ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه فلقوا رجلا مُقبلا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم، وذلك في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليال أو خمسة عشر يوما.

تحصن اليهود في حصونهم، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، وقد أرسل رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عدوّ الله عبد الله بن أبيّ إلى بني النضير، أن اثبتوا وتمنّعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم؛ فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا؛ فقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ويكفّ عن دمائهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلْقة، فأجابهم لذلك؛ فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، فكان من أشرافهم الذين نزلوا خيبر: سلاّم بن أبي الحُقيق، وكنانة بن أبي الحُقيق، وحُيَيّ بن أخطب، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت خاصة يضعها حيث يشاء، فقسّمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا أن سهل ابن حنيف وأبا دجانة ذُكرا فقرا، فأعطاهما. وكانت غزوة بني النّضير في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة.

- **غزوة بدرَ المَوْعِد**: وسميت بدر الثانية أو الأخيرة، فقد تقدم أن أبا سفيان بن حرب قال عند انصرافه من أُحد، الموعد بيننا وبينكم العام القابل ببدر، فلما كان شعبان، وقيل ذي القعدة(4هـ)، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، فانتهى إلى بدر، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين، وباعوا ما خرجوا به من التجارات فربحوا للدرهم درهما. وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة، وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا، فما انتهوا إلى مرِّ الظَّهْران على أربعين كيلا من مكة، قال لهم أبو سفيان: إن العام عام جدب، وقد رأيت أني أرجع بكم، فانصرفوا راجعين، وأخلفوا الموعد؛ فسمّاهم أهل مكة جيش

السّويق، يقولون: إنّما خرجتم تشربون السويق؛ لذلك سميت الغزوة أيضا بغزوة السّويق. وكان لإخلافهم الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم.

- **غزوة دُومَة الجَنْدَل**: ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس للهجرة، واستعمل على المدينة سباع بن عُرفطة الغفاري، وهذا لما بلغه أن بدومة الجندل جمعا كثيرا يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب رسول الله ﷺ النّاس، وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول في ألف من المسلمين، فكان يسير في الليل ويكمن في النهار، ومعه دليل من بني عُذْرة يقال له مذكور، فلما دنا منهم نزحوا عن أماكنهم؛ فهجم على ماشيتهم ورُعاتهم فأصاب من أصاب، وهرب من هرب، وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يلق بها أحدا، فأقام بها وبثَّ السرايا وفرّقها، فرجعت ولم تُصب أحدا، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة لعشر ليال بقين من شهر ربيع الآخر، ووادع في تلك الغزوة عُيينة بن حصن.

- **غزوة الأحزاب(الخندق)**:

وقد جرت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس للهجرة، وهي تمثل حلقة من حلقات الصراع العسكري بين المسلمين وقريش، وكان الذي جرّ غزوة الخندق، ما كان من إجلاء رسول الله ﷺ بني النَّضير عن ديارهم؛ فقد سعى نفرا منهم لأخذ الثأر من رسول الله ﷺ، ومنهم: سلاّم بن أبي الحُقيْق، وحُييّ بن أخطب، وكِنانة بن أبي الحُقيْق، وهَوْذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النّضير ومن بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، حيث اتصلوا بقريش، فدعوهم إلى حربه ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله؛ فأجابوهم لذلك، ثم خرجوا من مكة إلى نجد حيث حالفوا قبيلة غطفان الكبيرة على حرب رسول الله ﷺ، مقابل وعْدِهم بنصف ثمر خيبر؛ لإغرائهم بالمشاركة. واجتمعت الأحزاب من المشركين، فخرجت قريش وحلفائها وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف المُرّي في بني مُرّة، ومِسْعر بن رُخَيْلة الأشجعي في بني الأشجع، وبنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأسدي، وتحركت هذه الأحزاب نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه، في جيش عرمرم قوامه عشرة آلاف مقاتل.

ولما تهيأت قريش للخروج، خرج ركب من خزاعة إلى النبيّ ﷺ في أربع ليال، فأخبروه بذلك، وحينها ندب رسول الله ﷺ النّاس، وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم أيبرزُ من المدينة أم يكون فيها، ويحاربهم عليها وفي طُرقها، فأخذ برأي سلمان الفارسي الذي أشار بضرب الخندق على المدينة. وخرج نبيّ الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وعمِل ﷺ في حفر الخندق ترغيباً في الأجر وحثّا للمسلمين؛ وعملوا، واستعاروا من بني قريظة آلةً كثيرة من مساحي، وكرازين(ج. كرزن، وهو الفأس)، ومَكاتل(زنبيل)، يحفرون به الخندق، وهم يومئذ سِلْم للنبيّ ﷺ يكرهون قدوم قريش. يمتد الخندق من أم الشيخين طرف بني حارثة شرقا حتى المذاذ غربا، وكان طوله خمسة آلاف ذراع(2725 متر) وبشكل قوس منفرج، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، وكان على كل عشرة من

المسلمين حفر أربعين ذراعا. وقد تسلّل عنه ﷺ جماعة من المنافقين بغير علم ولا إذن منه، في حين كان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللّحوق بحاجته فيأذن له، فإذ قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له، فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه**﴾[النور، 62]. وحفر رسول الله ﷺ وأصحابه في الخندق بضع عشرة ليلة، وقيل أربعا وعشرين.

وفي الصحيح يروي عن أنس رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال: «اللّهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجره». وكان في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة: منها أن جابرا كان يحدّث: أنه اشتد عليهم في بعض الخندق كُدية، فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقام وبطنه معصوب بحجر، فأخذ المِعول وضرب فعاد كثيبا أهيل. ومنها حديث شُوَيْهة جابر، فيقول: فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللّحم في البرمة، ثم جئت النبيّ ﷺ والبرمة قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا، فأقبل الناس معه، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللّحم، ويعطي لأصحابه حتى شبعوا وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وبقي بقية، قال: «كلي هذا وأهدي، فإن النّاس أصابتهم مجاعة».

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، ضرب معسكره شمال المدينة، وجعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام. ولما أقبلت قريش وأحابيشها ومن تبعهم من كنانة وتهامة إلى المدينة نزلت بمجتمع الأسيال، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذَنَبِ نقْمى إلى جانب أحد، ولما أرادوا مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقا عريضا يحول بينهم وبينها؛ فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، وأخذوا يدورون حول الخندق يتحسّسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يرشقونهم بالنّبل؛ حتى لا يجترئوا الاقتراب منه، أو اقتحامه، أو يهيلوا عليه التراب؛ ليعبروا منه ولكن دون جدوى، فقد كانت المقاومة شديدة وباسلة من المسلمين. ودسّ أبو سفيان حُييّ بن أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن ينقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ، ويكونوا معهم عليه، فامتنعوا من ذلك، ثم أجابوا إليه؛ وبلغ النبيّ ﷺ ذلك، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، ونَجَم النفاق من بعض المنافقين، وعظُم البلاء واشتد الخوف على النّاس، وخِيف على الذراري والنساء، وكانوا كما قال تعالى: ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر**﴾[الأحزاب، 10]، فكان رسول الله ﷺ، يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير؛ خوفا على الذراري من بني قريظة. وأقام رسول الله ﷺ، والمشركون عليه بضعا وعشرين ليلة قريبا من الشهر، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرّمي بالنّبل، مع بعض المناوشات، وقد أُصيب سعد بن معاذ فقطع منه الأكْحَل، رماه حِبّان بن العَرِقة.

وأما رسول الله ﷺ فتقنّع بثوبه حين أتاه غدر قريظة، فاضطجع ومكث طويلا، حتى اشتد على النّاس البلاء، ثم نهض مبشّرا يقول: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره»، وأخذ يخطط لمجابهة الوضع الراهن، فاستشار السعدين في مصالحة عُيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان، على ثلثي ثمار المدينة؛ حتى يُشتّت الأحزاب ويفقرّهم، فردّ السعدين وقالا: يا رسول الله ﷺ، إن كان الله أمرك بذلك فسمعا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنّا وهؤلاء القوم على شرك، لا يطعمون في ثمارنا إلا بيعا أو قِرى(ضيافة)، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزّنا الله بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوّب رأيهما، فترك ذلك رسول الله ﷺ.

ومن شدّة الحصار وهوله؛ انشغل رسول الله ﷺ، والمسلمون عن الصّلاة، وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله، قال: جاء عمر يوم الخندق، فجعل يسبّ كفار قريش، ويقول: يا رسول الله ﷺ، ما صلّيت العصر حتى كادت الشمس أن تغيب، فقال النبيّ ﷺ: «وأنا والله ما صلّيتها بعد» قال: فنزل إلى بطحان، فتوضأ وصلّى العصر بعد ما غابت الشّمس، ثم صلّى المغرب بعدها، وقال في موضع آخر: «حبسونا عن الصّلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا».

ثم إن الله عز وجل صنع أمرا من عنده، خذّل به العدوّ، وهزم جموعهم، وفلّ حدهم، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له: نُعيْم بن مسعود الأشجعي، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله، إني قد أسلمت، ولم يعلم قومي، فمرني بما شئت؛ فقال نبيّ الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنّا إن استطعت، فإن الحرب خدعة؛ فمشى بين قريش وقريظة وغطفان وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء كلاما يرى كلّ حزب أنّه ينصح له، فقبلوا قوله واستوحش كل حزب من صاحبه، وطلبت قريظة من قريش الرّهن حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت ذلك قريش واتّهموهم، واعتلّت قريظة عليهم بالسّبت وقالوا: لا نقاتل فيه؛ لأن قوما منّا قاتلوا عدوّا في السبت فمسِخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان: ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير، وبعث الله ريحا شاتية شديدة البرد ليلة السّبت ففعلت بالمشركين، وتركت لا تُقرّ لهم بناءً ولا قدرًا ولا نارًا، فأنزل الله تعالي: ﴿**إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها**﴾[الأحزاب، 9]. وقد نصر الله تعالى نبيّه ﷺ بريح الصّبا، كما أخرج الشّيخان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصرت بالصَّبَا، وأُهلكت عاد بالدَّبور».

ولما انتهى إلى النبيّ ﷺ اختلاف أمرهم(الأحزاب)، التفت إلى أصحابه والوقت ليل فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، جعله الله رفيقي في الجنّة؛ يشرط رسول الله ﷺ الجنّة والرجوع، فما قام رجل من الصحابة من شدّة الخوف والجوع وشدّة القرّ، فلما لم يقم أحد، دعا رسول الله حُذيفة بن اليمان وقال له: انطلق إليهم وانظر حالهم، ولا تُحدثنّ شيئا حتى تأتينا، قال حذيفة: فذهبت فدخلت فيهم، والرّيح وجنود الله تفعل فيهم ما تفعل، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر الرجل أمر جليسه، قال: فأخذت بيد الرجل الذي بجانبي فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان، ونادى أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم لستم بدار مُقام، لقد هلك الخُفّ والحافر، وأخلفتنا بنو قريظة، ولقد لقينا من الرّيح ما ترون فارتحلوا؛ فارتحل الناس وانقشعوا إلى بلادهم، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول، فجلس عليه فما أطلق عقاله إلا بعدما قام، وأضاف

حذيفة: ولولا عهد رسول الله إليّ أن لا أُحدث شيئا لقتلته، وذهب حذيفة إلى غطفان فوجدهم قد ارتحلوا، ويقول: فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، فألبسني ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان.

وهكذا انفض الأحزاب عن المدينة فتنفس المسلمون الصعداء، قال تعالى: ﴿**وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا**﴾[الأحزاب، 25]. وأذن بعدها النبيّ ﷺ للمسلمين بالانصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة. وقد قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله جلّ وعز الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم» فكان كذلك حتى فتح مكة. وأقام المشركين محاصرين لرسول الله ﷺ في الخندق بضعة عشر يوما، وعن جابر بن عبد الله قال: عشرين يوما، ويقال خمسة عشر يومًا؛ وهو أثبت عند الواقدي، وحدّد بعضهم أربعا وعشرين يوما، وقيل شهرا، أو نحو شهر، بداية فرض الحصار كانت في شوال ونهايته في ذي القعدة. وقد كان طول الحصار سببا في إضعاف معنوية الأحزاب، خاصّة إن أهدافهم لم تكن واحدة، فقريش تريد القضاء على المسلمين؛ لتحرير طرق تجارتها وللانتصار لوثنيتها، والأعراب يريدون نصرًا سريعا لنهب المدينة، ويهود مترددة بحيث لم تدخل القتال رغم نقضها للعهد؛ خوفا من ترك الأحزاب للحصار وجعلها تقف وحدها وجهًا لوجه أمام المسلمين.

وجملة القول، فإن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أي قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو بالمدينة؛ لأن العرب لم تكن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب. ومن نتائج غزوة الأحزاب الآتي:

- لم تفكر قريش بعد في غزو المدينة، ولم تحدث نفسها بعد ذلك بالقضاء على الإسلام، وتَحول موقف المشركين إلى موقف دفاع من الطرف الضعيف.
- إن المرتزقة لا يصمدون في الحرب ولا يضحون بأكثر مما يأخذون؛ كما وقع لغطفان في هذه الموقعة.
- إن اليهود جُبناء يُذكون الحروب بين خصومهم كما فعلوا في غزوة الأحزاب، حرّضوا المشركين من العرب ولكنهم ظلوا دائما بعيدين عن نار الحرب.
- إن المنافقين تُعرِّيهم الشدائد وتظهر زيف إيمانهم وأنهم مستعدون للانضمام إلى اليهود أو المشركين من كل عدوّ يريد القضاء على الإسلام فهم أخطر أنواع الأعداء؛ لأنهم بين صفوف المسلمين ويعرفون أحوالهم فيجب الحذر منهم.
- زادت إيمان المسلمين قوة وتصديقا بنصر الله لنبيّه ﷺ.

- غزوة بني قُريظة:

يهود بني قريظة، وما أحلّ الله تعالى بهم من البأس الشّديد، مع ما أعدّ الله لهم في الآخرة من العذاب الأليم؛ وذلك لكفرهم ونقضهم العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومُمالاتهم الأحزاب عليه، فما أجدى عنهم شيئا، وباءوا بغضب من الله ورسوله، والصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة.

ولما أصبح رسول الله ﷺ، عاد إلى المدينة من معسكره في الخندق، ووضع المسلمون السلاح، وضرب على سعد بن معاذ قبّة في المسجد ليعوده من قريب، فلما كان الظهر وضع عنه اللأْمة واغتسل في بيت أم سلمة، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: "قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، اخرج إليهم، قال النبيّ ﷺ: فأين؛ فأشار إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة نزلزل بهم الحصون". فأمر رسول الله ﷺ مناديا، فأذّن في الناس من كان سامعا مطيعا: «لا يصليّن أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلّي حتى نأتيَها، وقال بعضهم: بل نصلّي، لم يرد منّا ذلك، فذُكر للنبيّ ﷺ، فلم يعنف واحدا منهم.

استعمل النبيّ ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وقدّم عليّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة حتى دنا من حصونهم، ولحقه النبيّ ﷺ، في ثلاثة آلاف من الرّجال، والخيل ستّة وثلاثون فرسا، ونزل على بئر من آبارها تدعى "أنّا"، وذلك في أواخر ذي القعدة (5هـ)، وحاصرهم أشدّ الحصار شهرا، أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف في قلوبهم الرّعب – وقد كان حييّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه – فلما أيقنوا بأن رسول الله غير منصرف عنهم، حتى يناجزهم؛ بعثوا إليه أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر، وهو أنصاري من الأوس، نستشيره، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرّجال، وجهش إليه النّساء والصبيان يبكون، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنّه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ، حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ، فتاب الله عليه وأطلقه رسول الله ﷺ.

ولمّا جهدهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بأسراهم فكُتّفوا رباطًا، وجُعل على كتافهم محمد بن مَسْلمة، ونحُّوا ناحية، وأخرجوا النّساء والذُّرية من الحصون فكانوا ناحية؛ فقال الأوس: يا رسول الله ﷺ افعل في موالينا مثل ما فعلت في موالي الخزرج، يعني بني قينقاع، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ؟ قالوا: بلى، فأتاه قومه فاحتملوه على حمار، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك، فلما كثّروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعلم كثير منهم أنّه يقتلهم، فلمّا انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ، قال: قوموا لسيّدكم، أو قال: خيركم، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد: عليكم عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم إليّ؟ قالوا: نعم، وعلى من هاهنا، في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وغضّ

بصره عن رسول الله إجلالا له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وتُسبى الذّراري والنّساء، وتُقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «قضيت بحكم الله» من فوق سبع سماوات.

نزلت قريظة على حكم سعد، فاستنزلوا ثم حُبسوا بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فيها، يخرج بهم إليه أرسالا، وفيهم عدوّ الله حييّ بن أخطب، وكعب بن أسد سيّدهم، وكانوا ستمائة أو سبعمائة، وقيل: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة. واصطفى رسول الله ﷺ ريحانة بنت عمرو لنفسه، وأمر ﷺ بالغنائم، فجُمعت أمتعتهم وما وُجد في حصونهم من الحلْقة والأثاث والثياب؛ فوُجد فيها: 1500 سيف، 300 درع، وألفا رمح، و1500 تُرْس وحجَفَة، وأخرجوا أثاثا كثيرا وآنية كثيرة، ووجدوا من الجمال النّواضح عدّة، ومن الماشية، فجُمع هذا كله، ووجدوا خمرا وجرار سكر، فهُريق ذلك كلّه ولم يُخمّس، وأخرج الخمس من المتاع والسبي، ثم قسّم الباقي، فكان للفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان للفرس وسهم للفارس، وأَسْهم للرّاجِل سهما واحدا، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري، فابتاع بها خيلا وسلاحا. وكان فتح قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة، وقتل من المسلمين في الخندق ستة نفر، وفي قريظة ثلاثة نفر.

فلمّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، واستجاب الله دعاءه، حيث جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: "أن سعدا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبّ إليّ أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللّهم فإنّي أظنّ أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له، حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت وهو في خيمته بالمسجد، فمات منها رضي الله عنه"، فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر، قالت عائشة: سمعت بكاء أبي بكر وعمر وأنا في حُجرتي، وأمّا النبيّ ﷺ فكان لا يبكي على أحد، كان إذا اشتدّ وجْده أخذ بلحيته. وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ». وصحح الترمذي من حديث أنس قال: لما حُملت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخفّ جنازته، وذلك لحكمه في بني قريظة، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فقال: «إن الملائكة كانت تحمله». كان سعد من خيرة الصحابة وله مناقب كثيرة وتضحيات عظيمة من أجل الإسلام، جاء عند الشيخان ما يُجلي مكانته عند الله ورسوله، روي عن البراء رضي الله عنه قال: أُهدي للنبيّ ﷺ ثوب حرير، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه، فقال النبيّ ﷺ: «أتعجبون من هذا» قلنا: نعم، قال: «مناديل سعد بن معاذ في الجنّة خير من هذا».

وقد أنزل تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب، ذكر فيها أهم جزئيات الوقعة، وبيّن حال المؤمنين والمنافقين، ثم تخذيل الأحزاب، ونتائج الغدر من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿**وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتاسرون فريقا**﴾[الأحزاب، 26]، والمقصود بني قريظة.

- غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست:

بنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وكانت عامة بطون خزاعة ممالئين لرسول ﷺ ناصحين له، ولكن كان هذا الفرع ممالئا لقريش، وقعت هذه الغزوة في شعبان سنة ست عند ابن إسحاق، وسببها: أنه بلغه ﷺ أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه يُريدون حرب رسول ﷺ، فبعث بُريدة بن الحصيب الأسلمي؛ لتحقيق الخبر، فتأكد لديه صحته، فرجع وأخبره خبرهم؛ فندب رسول الله الناس إليهم، وأسرعوا الخروج ومعهم بشرٌ كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قطّ مثلها، حتى لقيهم على ماء لهم يسمى المُريسيع، من ناحية قُديد إلى الساحل، فتزاحم الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقُتل من قتل منهم، وسبى رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فكانت الإبل ألفي بعير، والشاة خمسة آلاف شاة، وكان السبيُ مائتي بيت، وكان في السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فلما قدم رسول ﷺ المدينة أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت؛ فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها، وكان قد استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري وقيل غيره. تلك هي غزوة بني المصطلق ليس فيها ما يستغرب، لكن وقعت خلالها حادثتان مؤلمتان استغلهما المنافقون لإثارة الفتن في المجتمع الإسلامي، وحتى البيت النبوي:

أ- **قول رأس المنافقين لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل:** وسبب ذلك أن رجلا من الأنصار واسمه سنان بن وبر الجهني، تنازع مع جَهجاه بن سعيد الغفاري على ماء المُريسيع، فضرب جهجاه سنانا بيده فنادى سنان: يا للأنصار، ونادى جهجاه: يا لقريش يا لكنانة، فأقبلت قريش سراعا وأقبلت الأوس والخزرج وشهروا السلاح، فتكلّم في ذلك ناسٌ من المهاجرين والأنصار حتى ترك سنان حقّه وعفا عنه واصطلحوا؛ فغضب عبد الله بن أبي، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السّن، فقال: أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، على حدّ القائل: "سمّن كلبك يتبعك"، وقال: ﴿**لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ**﴾[المنافقون، 8]. وعندما سمع زيد بن الأرقم ذلك، أبلغ به سول الله ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس: أن محمدا يقتل أصحابه، ولكن أذّنْ في الرّحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها؛ فارتحل الناس، ومشى يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس، حتى أتعبهم وأتعب إبلهم، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس.

ولمّا بلغ عبدَ الله بن عبد الله بن أُبيّ من أمر أبيه، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تُريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني فأنا أحمل لك رأسه، فقال رسول ﷺ: بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا. وجعل(ابن أُبيّ) بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه همُ الذين يُعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه، فقال رسول ﷺ لعمر بن الخطاب – حين بلغه ذلك من شأنهم -: كيف يا ترى عمر؟ أما والله لو قَتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعِدت له آنُفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فقال عمر: قد والله علمت، لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

ب- **حديث الإفك**: وحديث ذلك أن النبيّ ﷺ نزل في عودته من تلك الغزوة منزلا حين دنا من المدينة، ثم آذن بالرّحيل ليلاً، وكانت معه عائشة رضي الله عنها، فخرجت لحاجتها، فلما رجعت التمست صدرها فرأت أنها فقدت عقدها، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه حتى وجدته، وارتحل الجيش، وحملوا هودجها على بعيرها ظنّاً منهم أنها فيه، ولم ينكروا خفّة الهودج لكونهم جماعة، ولكونها خفيفة، ورجعت عائشة إلى منازلهم فلم تجد أحدا، فقعدت هناك على رأي أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها إلى هذا المكان، فغلبن عيناها حتى نامت، وكان أحد الصحابة وهو صفوان بن المُعَطَّل السُلميّ، من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فلما رأى سواد إنسان نائم، اقترب منه فعرف أنها عائشة؛ لأنه كان رآها قبل الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ، لم يقل كلمة غير ذلك، واستيقظت عائشة بسماع صوته، وتقول: فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلّمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبره عبد الله بن أبيّ، فقدمنا المدينة فاشتكيت، حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف، الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذاك يريبني، ولا أشعر بالشّر، حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح قِبل المناصع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب، أمّها خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا قد شهد بدرا، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، فدخل علي رسول الله ﷺ، فسلم ثم قال: «كيف تيكم؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنيّة هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها، ولها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها.

وبعد استشارة بعض أصحابه، قام رسول الله ﷺ من يومه في النّاس يخطبهم، فقال: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فلما سمع أسيد بن حضير تلك المقالة قال: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه بأمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس، والخزرج حتى همّوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا.

تقول عائشة: ثم نزل عليّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي، وامرأة من الأنصار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد ثم قال: «يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه»، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: والله ما أجد لي ولكم مثلا، إلا قول أبا يوسف إذ قال: ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾[يوسف، 18]، ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فلما سُرّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها، أن قال لي: «يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله»، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كِبره منهم له عذاب عظيم**﴾[النور، 11]، وقد خُصّ بهذا الوعيد رأس النفاق عبد الله بن أبي وأصحابه. ثم خرج رسول الله إلى الناس فخطبهم، وتلى عنهم ما أنزل عز وجل من القرآن فِيّ، ثم أمر بمسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش – وكانوا ممن أفصح بالفاحشة – فضُربوا حدّهم.

صراع الإسلام مع الوثنية (المرحلة الثانية)

1 – أمر الحُديبية والفتح المُبين في آخر سنة ست:

أ– الخروج للعمرة والنزول بالحديبية: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوّالا وخرج في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حربا، حيث أُري رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر بذلك المسلمين، وأخبر بأنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حوله، فأبطأوا، وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا. خرج النبيّ ﷺ يوم الاثنين غرة ذي القعدة، في 1400 من أصحابه، ويقال 1525، ويقال 1600. وأخرج معه زوجته أمّ سلمة رضي الله عنها، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ولم يُخرج معه بسلاح إلا السيوف في القُرُب وساق وأصحابه بُدُنا، وهي سبعون بَدَنة فيها جمل أبي جهل الذي غنمه يوم بدر. صلى النبيّ ﷺ الظهر في الحُليفة، وأحرم ولبّى، ثم سار حتى بلغ عُسفان، فجاءه عينه "بشر بن سفيان الخزاعي"، وأخبره أن قريشا مُجمعون على القتال، وصدّ المسلمين عن البيت الحرام، وكانت قريش بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم، قريبا من عسفان؛ ليسد الطريق النافذ إلى مكة، وجمعوا الأحابيش ليعينوهم؛ فاستشار رسول الله ﷺ هل يهاجم المجتمعين من الأحابيش، أو يقصد البيت، فمن صدّه يقاتله؟ فقال أبو بكر: جئنا معتمرين، لا مقاتلين، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقبل النبيّ هذا الرأي.

وصلى الرسول ﷺ بأصحابه في عُسفان صلاة الخوف، ثم سلك بهم طريقا وعرة، متجنبا الاصطدام بخالد بن الوليد، فمضى ﷺ ومعه أصحابه فسلك ذات اليمين من أسفل مكة، حتى بلغ ثنية المرار مهبط الحديبية، فلما بلغها بركت ناقته، فقال النّاس: حلْ حلْ يزجرونها، فأبت أن تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء (امتنعت عن المشي)؟ فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابِسُ الفيل»، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطّةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إيّاها»، ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمَد قليل الماء، فلم يلبثه النّاس حتى نزحوه وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاشت لهم بالرّواء حتى صدروا عنه. وفي شأن تكثير الماء الذي نضب، هناك رواية أخرى عند البخاري، فعن البراء رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها ثم «دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا».

ب- **المفاوضات ونتائج الصلح**: ولما نزل الرسول ﷺ بالحديبية، بدأت المراسيل والمفاوضات بينه وبين قريش، بحيث جاءه "بُديل بن ورقاء الخزاعيّ في نفر من خزاعة، فأخبره أن قريشا مستعدون لقتاله وصدّه عن البيت، فأخبره رسول الله ﷺ أنه ما جاء إلا للعمرة، وأنه مستعد للهدنة والصلح، ولما رجع بُديل أبلغ ذلك قريشا، فأرسلوا مكرز بن حفص، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبُديل، فأرسلوا سيّد الأحابيش "الحلَيْس بن علقمة"، فاستقبلوه يلبّون، فلما رأى ذلك قال: ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت، فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا: اجلس إنما أنت أعرابي، لا علم لك بالمكائد. ثم أرسلوا "عروة بن مسعود الثقفي"، فجاء وكلّم، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبُديل، وقد رأى عروة تعظيم الصحابة للنبيّ ﷺ، فلما رجع قال لقريش: أي قوم، لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعن في كف رجل منهم، فدلّك بها وجهه وجلده، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون النظر إليه تعظيما له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وأرسل رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه إلى قريش وقال له: أخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زُوارا لهذا البيت، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، فانطلق عثمان فمرّ على قريش، فقالوا: إلى أين؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم: أنه لم يأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين، فخاف الرسول ﷺ، وخاصة بعد أن شاع أنه قد قتل، فدعا إلى البيعة، فتبادروا إليه، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، وبايع لعثمان فضرب بشماله على يمينه، وهذه هي بيعة الرضوان التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يُبايِعونك تحت الشَّجرة فعلم ما في قلوبهم فَأنْزل السَّكينة عليهم وأَثابهم فتحـًا قريبـًا**﴾[الفتح، 18]. وقد رجع عثمان إلى المسلمين بعد بيعة الرضوان مباشرة.

وبعد جملة من المفاوضات غير المباشرة، أجمع الطرفان على الصلح والموادعة، فبعثت قريش "سُهيل بن عمرو" في عدّة من رجالهم، وجرت مفاوضة طويلة بين النبيّ ﷺ وسهيل انتهت إلى عقد صلح الحديبية، وكتبوا بينهم: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، واصطلحا؛ على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويَكُفّ بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلال(سرقة) ولا إغلال(خيانة)، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمدا منهم بغير إذن وليّه ردّه إليه، وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردّوه، وأنّ محمدا يرجعُ عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابلا في أصحابه فيُقيم ثلاثا، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القُرُب(الأغماد). قَبِل النبيّ هذه الشروط على ما في بعضها بادئ الرأي من إجحاف بالمسلمين. وأشهد ﷺ على الصلح جمعا من الصحابة ورجالا من المشركين. وخرج أبو جندل بن سهيل بن عمرو من مكة إلى رسول الله ﷺ يرسفُ في قيوده، فقال سهيل: هذا أول من أقاضيك عليه، فردّه النبيّ ﷺ، وقال: يا أبا جندل، قد تم الصلح بيننا وبين القوم، فاصبر حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا. وقد دخلت خزاعة في عهد رسول الله، ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

ولما فرغوا من الكتاب انطلق سُهيل وأصحابه ونَحر رسول الله ﷺ هديه وحلّق، حلّقه خِراش بن أمية الكعبي، ونحر أصحابه وحُلّق عامتهم وقصر الآخرون، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله المحلقين، قالها ثلاث، قيل والمقصّرين، قال: والمقصّرين. أقام في الحديبية بضعة عشر يوما، ويقال عشرين يوما. وقد عمّ الحزن والشكوك والوساوس المسلمين جراء هذا الصلح؛ لأنهم لم يطوفوا بالبيت، وأنه رسول الله ﷺ على الحق فلما أعطي الدنيّة في الصلح؟ وكان لعمر بن الخطاب موقفا في ذلك، فيقول عن نفسه كما جاء في الصحيح: فأتيت نبيّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيّ الله حقّا، قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدوّنا على الباطل، قال: «بلى»، قلت: فلِم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوليس كنت تُحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام»، قال: قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»، فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبيّ ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيّعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: «نعم»، فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت.

إن المراد بالفتح في مفتتح سورة الفتح هو صلح الحديبية وما جرى فيها من البيعة، وهو ما جاء في قول البراء رضي الله عنه، حيث قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، وما فُتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، دخل في تَيْنك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، وليس أدلّ على هذا من أن المسلمين كانوا حوالي 1500، وكانوا في فتح مكة عشرة آلاف. ومن مكاسب المسلمين من صلح الحديبية:

- اعترفت قريش بالمسلمين اعتراف الندّ بالندّ، وفي ذلك دعاية للإسلام، وتمهيد لاتساع نفوذه وسطوته.

- إن هذه الهدنة ضمنت للمسلمين الانصراف إلى تبليغ دعوة الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة وما يتاخمها من الدول والإمارات، وهذا ما كان، فقد كاتب النبيّ الملوك والأمراء؛ وبذلك انتشر الإسلام أضعاف انتشاره من قبل.

- كان ما تحفظ عنه بعض المسلمين من الصلح: أن من أتى المسلمين من قريش رُدّ، ومن جاء قريشا لا يُردّ، وقد أثبت الواقع أنه لم يرتد مسلم، وبذلك أصبح هذا البند من الشرط غير ذي خطر، كما كان يعلم نبي الله بفيوضات نور الوحي، أن هذا الشرط في جزئه الأول سيجر على قريش متاعب كثيرة، قد تضطرها إلى التنازل عنه. وهو ما حدث عندما شكّل أبو بصير الفار من قريش الذي نزل في العيص على ساحل البحر مع طائفة من مستضعفي مكة من المسلمين الذين انفلتوا ولحقوا به منهم أبو جندل، حتى تكوّن منهم نحو السبعين رجلا، فقطعوا على قريش تجارتها، فما كان من أمر قريش، أن أرسلت إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يرسل إليهم ويؤويهم، وأن من أتاه مهاجرا من المسلمين فهو آمن ولا يُرد.

2- مرحلة جديدة في تبليغ الدعوة، مكاتبة الملوك والأمراء:

شكلت مرحلة ما بعد الحديبية مرحلة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وذلك بالتوجه بالدعوة إلى خارج الجزيرة العربية من العرب والعجم، ولما عزم رسول الله على مكاتبة الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، صُنع له خاتم من فضة، نُقش عليه "محمد رسول الله"؛ ليختم به هذه الكتب. وأرسل ﷺ الرسل، فبعث إلى النجاشي "الأصحم بن أبجر" عمرو بن أمية الضمري، وبعث دِحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل الروم، وأرسل عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وأرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمِر الغّساني، وبعث سَليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي، وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، وبعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى عظيم بصرى من قبل الروم شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطا وقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ غيره. وبعث برسل وكتب كثيرة إلى كثير من الأمراء العرب، فأسلم منهم الكثير وعاند البعض منهم.

وأما المقوقس فإنه قبل كتاب النبيّ ﷺ وأهدى إليه جوارٍ، منهن مارية أمّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ. وأما قيصرالروم، فإنه قبلَ كتاب رسول ﷺ وقال لدحية إنّي لأعلم أن صاحبك نبيّ مرسل، ولكني أخاف الروم على نفسي؛ ولولا ذلك لاتبعته. وأمّا الحارث بن أبي شِمر الغساني فأتاه كتاب رسول الله ﷺ مع شجاع، فلما قرأه، قال: أنا سائر إليه، فلمّا بلغ قوله رسول الله ﷺ قال: «باد ملكه». وأما النجاشي، فإنّه لما جاءه كتاب النبيّ ﷺ، آمن به واتبعه، وأرسل إليه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، فتنصّر وتوفي بالحبشة، فخطبها النجاشي إلى رسول الله ﷺ، فأجابت، وزوّجها، وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار، فلمّا سمع أبو سفيان تزويج النبيّ أم حبيبة قال: ذاك الفحل لا يُقْدَع أنفه.

وأمّا كسرى، فعندما جاءه كتاب رسول الله ﷺ، مزّقه، وقال: يكتب إليّ بهذا وهو عبدي، فقال ﷺ: «مُزِّق ملكه» حين بلغه أنّه شقّ كتابه، ثم كتب كسرى إلى باذان وهو على اليمن، أن أرسل إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلْدين، فليأتياني به، فبعث باذان قهرمانه وهو بابَوَيْه، ومعه رجلا من الفرس يقال له خُرّخُسره، فخرجا حتى قدما المدينة

على رسول الله ﷺ، وأخبراه سبب قدومهما إليه، فقال لهما: ارجعا حتى تأتياني غدا، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء أنّ الله سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، فدعاهما فأخبرهما وأذن لهما بنقل الخبر عنه إلى ملكهما. فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيّا كما يقول، فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب من شيرويه، أما بعد فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبا لفارس، فإذا جاء كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تُهجه حتى يأتيك أمري فيه، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول؛ فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن.

3- **غزوة خيبر سنة سبع:**

أقام رسول الله ﷺ بعد رجوعه من الحديبية ذا الحجة وبعض محرم، وخرج في بقية منه غازيا إلى خيبر، وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية، في قوله تعالى: ﴿**وعدكم الله مَغانم كثِيرة تَاخُذونها فعجَّل لكم هذه**﴾[الفتح، 20]. وقد أعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة، وهم ألف وأربعمائة، واستعمل على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطة الغفاري، فمضى حتى نزل بجيشه بالرّجيع؛ ليحول بين أهل خيبر وغطفان؛ لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله ﷺ. وقصدت غطفان خيبر ليظاهروا اليهود عليه، ثم خافوا المسلمين أن يخلفوهم في أهليهم وأموالهم، فرجعوا. ونزل النبيّ ﷺ على خيبر ولم يعلم أهلها، يقول أنس: فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم، ومكاتلهم، فقالوا: محمد والخَميس(يعنون الجيش)، قال: وقال رسول الله ﷺ: خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿**فساء صباح المنذرين**﴾[الصافات، 177].

ثمّ حصرهم رسول الله ﷺ وضيّق عليهم، وبدأ بالأموال يأخذها مالا مالا، ويفتها حصنا حصنا، فكان أول ما افتتحه هو حصن ناعم، ثم القَمُوص حصن بني أبي الحقيق، وأصاب منهم رسول الله ﷺ سبابا، منهم صفية بنت حيي بن أخطب، فاصطفاها لنفسه، ثم افتتح رسول الله حصن الصّعب وهو أكثر طعاما وودكا، ثم قصد حصنهم الوطيح والسّلالم، وكانا آخر ما افتتح، وأخذ من حصن بني أبي الحُقيق كنز آل أبي الحقيق الذي كان في مسك الجَمَل، وكانوا قد غيّبوه في خَرِبة فدلّ الله رسوله عليه فاستخرجه، وقتل منهم ثلاثة وتسعين رجلا؛ فلما أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسّرهم ويحقن دماءهم، فأجابهم لذلك، وسألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وأن يُخرجهم إذا شاء، فساقهم على الأموال على الشرط الذي طلبوا. فلما سمع بذلك أهل فدك بعثوا إلى رسول ﷺ أن يسيّرهم ويخلّول له الأموال على النصف، ففعل. فكانت خيبر فيئا للمسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يجلبوا عليه خيلا ولا ركاب.

ولما استقر رسول الله ﷺ، أهدت له "زينب بنت الحارث" امرأة سَلاّم بن مِشكم شاة مصليّة مسمومة، فوضعها بين يديه، وأخذ ﷺ منها مُضغة فلم يُسغها، ومعه بِشر بن البراء بن معرور، فأكل بشر منها، وقال رسول الله ﷺ: إن هذه الشاة تُخبرني أنها مسمومة، ثم دعا المرأة فاعترفت، فقال ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغتَ من قومي ما لم يخفَ عليك فقلت: إن كان نبيّا فسيُخبر، وإن كان ملكا استرحنا منه، فتجاوز عنها، ومات بِشر من تلك الأكلة.

ولما افتتح رسول الله خيبر قدم عليه جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة، فقبّل النبيّ بين عينيه والتزمه وقال: «وما أدري بأيّهما أُسرّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر». جاء في الصحيحين أن جعفر قدم إلى النبي مع بعض من مهاجري اليمن، فعن أبي موسى، قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ، ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم – إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلا من قومي – قال فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا، قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأَسْهم لنا، أو قال أعطانا منها، وما قسّم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئا، إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه.

4- عمرة القضاء(عمرة القصاص) سنة سبع:

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر أقام بها شهري ربيع وجماديين ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا يبعث فيها بين ذلك من غزوة وسراياه ﷺ، ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمرا عمرة القضاء، مكان عمرته التي صدّوه عليه ﷺ، ويقال لها عمرة القضية؛ لأن رسول الله ﷺ قاضى قريشا عليها، أي صالحهم عليها، ومن ثم قيل لها عمرة الصلح، ويقال لها عمرة القصاص، قال السهيلي: وهذا الاسم أولى بها، لقوله تعالى: ﴿**الشّهر الحرام بالشّهر الحرام والحرمات قصاص**﴾[البقرة، 194].

وخرج رسول الله ﷺ قاصدا مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشا في الحديبية، أي من أنه يدخل مكة في العام القابل معه سلاح المسافر ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام. وأمر أن لا يتخلف عنه أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف أحد إلا من استشهد في خيبر أو من مات. خرج ﷺ في ألفين من المسلمين عُمّارا، واستخلف على المدينة أبا رُهم الغفاري وقيل غيره، وساق ستين بدنة وقلدها: أي جعل في عنق كل بعير قطعة من جلد أو نعلا بالية ليُعلم أنه هدي فيكفّ الناس عنه. وحمل رسول الله ﷺ الدروع والرماح، وقاد مائة فرس عليها محمد بن مسلمة، وأحرم من باب المسجد ولبّى والمسلمون معه يُلبّون.

فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراؤهم من مكة حتى لا يروه يطوف بالبيت وهو وأصحابه عداوة وبغضا وحسدا لرسول الله، فدخل النبيّ ﷺ وأصحابه مكة، راكبا ناقته القصواء وأصحابه محدّقون به، قد توشحوا السيوف يلبّون، وتخلف عنده جمع من المسلمين نحو مائتين من أصحابه عليهم أوس بن خولي، وقعد جمع من المشركين بجبل بقُعيقعاع ينظرون إليه وإلى المسلمين وهم يطوفون بالبيت، وقد قالوا: أي كفار قريش: إن المهاجرين أوهنتهم: أي أضعفتهم حمّى يثرب، فأطلع الله نبيّه على ما قالوا، اضطبع بردائه، وأخرج عضده الأيمن، ثم قال: رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة، فأمر أصحابه أن يرمّلوا الأشواط الثلاثة؛ ليروا المشركين أن لهم قوة، ثم استلم الركن، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واره البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هَرول ثلاثة أطواف ومشى سائرها.

وتزوج رسول الله ﷺ في عمرته تلك ميمونة بنت الحارث الهلالية؛ وهي أخت أم الفضل زوج العباس، وأخت أسماء بنت عميس لأمها زوج حمزة، وكان تزوجه ميمونة قبل أن يُحرِم بالعمرة، وقيل بعد أن أحلّ منها، وقيل وهو مُحرِم، وهو ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس. فلما تمت الثلاثة أيام التي هي أمدُ الصلح، جاء حويطب بن عبد العزى ومعه سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ يأمرانه بالخروج هو وأصحابه من مكة، فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فخرج رسول الله ﷺ وأصحابه منها، وبنى بميمونة بِسَرف خارج مكة، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة. قال ابن هشام: فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا**﴾[الفتح، 27]. وقد أسلم في هذه الفترة ثلاثة من كبار الصحابة وهم: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، ويذكر صاحب عيون الأثر أن إسلامهم كان قُبيل عمرة القضاء، وقيل بعدها في صفر سنة ثمان.

5 – غزوة مُؤتة (غزوة الأمراء):

هذه المعركة أعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى. وقعت في جمادى الأولى سنة ثمان، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة 629م. ومُؤتة؛ هي قرية على مشارف الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان. وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث "الحارث بن عمير الأَزْدي" بكتابه إلى ملك الروم، فعرض له شُرَحبيل بن عمرو الغساني وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر، فأوثقه رباطا، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، وهو بمثابة إعلان حرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين؛ فجهّز جيشا، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»، وأضاف الواقدي، عن رسول الله ﷺ، فإن أُصيب(عبد الله) فليرتض المسلمون رجلا يجعلونه عليهم. وهذه المرة الأولى التي يُتخذ فيها مثل هذا الاحتياط، وربما كان متوقعا أن تحف الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية، التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسيا.

عقد لهم رسول الله ﷺ لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأمرهم أن يأتوا مكان مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا، وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم. فتجهّز الناس، ثم تهيّئوا للخروج في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ، وخرج عليه الصلاة والسلام لهم يشيّعهم، ولما بلغ ثنيّة الوداع وقف وودّعهم، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين.

انطلق الجيش الإسلامي غازيا في سبيل الله، ثم مضوا حتى نزلوا مُعَان من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم نصارى العرب من لَخم وجُذام وبَلْقَين وبهراء، وبَلِيّ، في مائة ألف وعليهم مالك بن زاحلة من بني أراشة. فأقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم، فقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره الخبر، فإما أن يمدّنا بالرجال، وإما يأمرنا بأمره فنمضي له، لكن عبد الله بن رواحة شجّعهم على المُضيّ، بقوله: يا قوم، والله إن التي تكرهون،

للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة. قال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. ومضى الناس، فالتقتهم جموع الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء، يقال لها: مَشَارف، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال مؤتة، فالتقى الناس عندها، وكان ميمنة المسلمين قُطبة بن قتادة العذري، وعلى ميسرتهم عَبابة بن مالك الأنصاري، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ، حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب؛ فلما اشتد القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها – وكان جعفر أول من عقر فرسه في الإسلام – ثمّ قاتل القوم حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل يقاتل حتى قُطعت، فاحتضن الراية بعضُديه، فلم يزل رافعا إيّاها حتى قُتل، يقال أن روميا ضربه ضربة قدّته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء؛ ولذلك سُمِّي بجعفر الطيّار، وبجعفر ذي الجناحين. وجاء في الصحيح عن ابن عمر قال: كنت فيهم تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية.

ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قُتل، ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية، قاتل قتالا مريرا، ففتح الله عليه، ورُوي عنه(خالد بن الوليد)، قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية. وقد رُفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى مُعترك القوم، فعن أنس رضي الله عنه ذكر، أن النبيّ ﷺ نعى زيدا، وجعفرا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الرّاية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب» وعيناه تذرفان: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم»، فمن يومئذ سُمِّي سيف الله.

فحمل الراية وأخذ يقاتل ويحاول إنقاذ الجيش، حتى دخل الليل فكان هدنة مؤقتة، فأعاد خالد فيها تنظيم جيشه بتغيير مواضع أمكنة الخَميس، فقد جعل مُقدمته ساقة وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة، فضنّ القوم من الروم أنه قد جاءهم مدد، فرُعبوا وانكشفوا؛ فهجم عليهم بعد الفجر وقتل منهم الكثير، واستشهد من المسلمين اثنا عشر رجلا فقط، وانحاز خالد بالمسلمين، وانصرف الناس، ورجع الجيش إلي المدينة، ولما دنوا من حولها تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدّون، والناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «ليسوا فرارا، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى». وجيء بأبناء جعفر بن أبي طالب للنبيّ ﷺ فداعبهم وأمر بحلق رؤوسهم، كما يروي عبد الله بن جعفر قال: فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: ادعوا إليّ الحلاق، فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال: «اللهم اخلف جعفرا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه»، ويضيف عبد الله: فجاءت أمّنا فذكرت له يتمنا، فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليّهم في الدنيا والآخرة».

ويمكن القول إن خالدا بخطته وشجاعته، قد أنقذ المسلمين من هزيمة ماحقة، ولا تعد خسائر المسلمين شيئا يذكر، بجانب خسائر النصارى، ومن ثم كان انسحابه قمة النصر بالنسبة لظروف المعركة، حيث تمكن من إنقاذ جيشه

بخسائر طفيفة. ولا شك أن استبسال المسلمين في القتال وشجاعتهم النادرة وحرصهم على الشهادة، بالإضافة إلى عبقرية خالد العسكرية، هو الذي مكّنهم بعون من الخلاص من المأزق.

6 – فتح مكة، في رمضان سنة عشرة:

هو الفتح الأعظم الذي أعزّ به دينه ورسوله وجنده، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت على أطناب عزّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام، وجنود الرحمن يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضين من رمضان سنة ثمان، واستعمل على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حُصين الغفاري، وقيل، بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم.

وكان السبب الذي جرّ إليه، وحدا إليه، هو الإخلال بإحدى بنود العهد المنصوص عليها بين النبيّ ﷺ وقريش في صلح الحديبية، بحيث كان الاتفاق بين رسول الله ﷺ وقريش على أن من أحبّ أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وكانت بين القبيلتين حروب ومنازعات هدأت لوقت ما بعد هذا الصلح. وقد اغتنمت بنو بكر الهدنة، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر، فبيَّت خزاعة وهم على "الوَتير" ماء لهم، فتناوشوا واقتتلوا وأصابوا منهم عشرين رجلا، وأعانت قريش بني بكر بالسّلاح، وقاتل معهم ليلتئذ من قاتل من كبار قريش متنكرين مستخفين، منهم: صفوان بن أمية، وحُويطب بن عبد العزى، ومِكرز بن حفص مع عيرهم وعبيدهم، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال: كلمة عظيمة، لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم. فلما انتهت خزاعة إلى الحرم، لجئوا إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي، ودار مولى لهم يقال له رافع.

ولما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعى في أربعين راكبا من خزاعة، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال:

يا رب إني ناشد محمّدا   حلف أبينَا وأبيهِ الأتْلَدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب. ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. عندها قال رسول الله ﷺ للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة، إثرها قدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله، بعثته قريش تكفيرا لذنبها

الذي صنعت؛ من نقض للمدة والعهد مع رسول الله ﷺ، وقد طلب أبو سفيان أن يجدّد العهد ويزيد في المدة، فأبى عليه نبيّ الله، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيّها الناس؛ إنّي قد أجرت بين النّاس، ثم ركب بعيره وانصرف إلى مكة.

وأمر رسول الله ﷺ النّاس بالجَهاز، وطلب أهله أن يجهزوه، ثم أعلم ﷺ النّاس أنّه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتّهيؤ، وقال: «اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تُبلغه قريشاً، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به؛ فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي والزبير والمقداد، فأمسكوا المرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلا من المدينة، فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها، فلم يجدا شيئاً. فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنّك، فلما رأت الجدّ منه، قالت: أعرض فأعرض فحلّت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه.

فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا حاطباً، وقال: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله؟ أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكنّي كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق؛ فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، فأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة**﴾[الممتحنة، 1].

استنفر رسول الله ﷺ القبائل التي حول المدينة: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه في الطريق، وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وقد أوعب مع رسول الله المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد. سار النبيّ ﷺ يريد مكة، وكان المسلمون صياما حتى بلغوا كُديداً، أفطر النبيّ وأفطر الناس معه. وفي الجُحفة - قرب رابغ الآن – قدم العباس بن عبد المطلب على رسول الله ﷺ مهاجرا. ووصل الجيش الإسلامي إلى مرّ الظهران وعسكر هناك دون أن تعلم قريش بتحركه، وأمر النبيّ أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار. وقد خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي يتحسّسون الأخبار، فالتقوا بالعباس، وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولا يطلب منهم أن يخرجوا لمصالحة الرسول قبل أن يدخل عليهم مكة، وطلب العباس من أبو سفيان أن يرافقه إلى معسكر المسلمين، فوافق، وقابل الاثنان رسول الله، وبعد تردد أسلم أبو سفيان في اليوم التالي، وجعل له رسول الله ﷺ أن من دخل داره فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وكان قد أدرك أبو سفيان قوة المسلمين، وأنه لا قِبل لقريش بهم، فمضى إلى مكة ونهاهم عن المقاومة.

وفي مرِّ الظهران قرّر النبيّ ﷺ الزحف إلى مكة، فعيّن القادة وقسّم الجيش إلى ميمنة وميسرة، فكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى، وأبو عبيدة بن الجراح على الرجالة، وكانت للرسول ﷺ راية

سوداء ولواء أبيض، ودخلت جيوش المسلمين مكة حتى انتهت إلى الصفا، ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه، ودخل رسول الله ﷺ مكة من أعلاها من جهة كداء، ودخل خالد من أسفلها، فكان له قتالا يسيرا مع القرشيين، بلغ عدد القتلى من المشركين قريبا من أربعة وعشرين، وقيل ثلاثة عشر، واثنان أو ثلاثة من المسلمين.

دخل النبيّ ﷺ مكة عنوة (أو صلحا)؛ فأسلم الناس طائعين كارهين، وطاف بالبيت سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجم في يده؛ فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسّرها بيده ثم طرحها، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فجعل كلّما مرّ بصنم يشير إليه بقضيب في يده ويقول: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾[الإسراء، 81]، فيقع الصنم لوجهه. وقد اختار رسول الله ﷺ أن يعفو ويصبر على ما كان منهم (عامة أهل مكة)، ويدع عقوبتهم تفضلا منه واحتسابا فقال: «نصبر ولا نعاقب». ولم ينزل رسول الله في بيته بمكة، بل ضربت له قبّة في الحجون؛ في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم.

ولمّا استقر الفتح، أمّن رسول الله ﷺ الناس كلّهم إلا تسعة نفر، فإنه أمر بقتلهم، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خَطَل، والحويرث بن نُقيذ، ومَقِيس بن صُبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان لابن خَطَل: فَرْتَنا وقَرِينة؛ كانتا تغنّيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض عبد المطلب. فأما ابن أبي سرح فأسلم، وجاء به عثمان بن عفان واستأمن له رسول الله ﷺ، وأما هبّار بن الأسود، ففرّ، ثم أسلم وحسن إسلامه. وأما عكرمة بن أبي جهل، فاستأمنت له امرأته أم حكيم بعد أن فرّ، فأمنه النبيّ ﷺ، فقدم وأسلم وحسن إسلامه. وأستؤمن من رسول الله لِسارة ولإحدى القينتين، فأمّنهما فأسلمتا. وأما ابن خطل، والحارث، ومَقيس، وإحدى القَينتين، فقتلوا.

ولما فتح الله مكة على رسوله، وهي بلده، ووطنه، ومولده، قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه أن يُقيم بها، وهو يدعو على الصفا رافعا يديه؟ فلما فرغ من دعائه، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟ قالوا: قد كان ذاك، قال: «كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله، ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم».

وبعث رسول لله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة، فكُسرت كلها منها اللات والعُزى، ومناةُ الثالثة الأخرى، فبغث خالد بن الوليد إلى العُزى بنخلة فهدّمه، وبعث عمرو بن العاص إلى سُواع، وهو صنم لهذيل فهدّمه، ثم بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت بالمُشلّل عند قُديد للأوس والخزرج وغسان، فهدّمها. ونادى مناديه بمكة: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنما إلا كسّره". وفي فتح مكة نزلت سورة النصر: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توابا**﴾. وقد كانت العرب تنتظر نهاية الصراع بين المسلمين وقريش، فلما كان الفتح أقبلت بجموعها وبادرت لإعلان إسلامها. ونتيجة لفتح مكة؛ تحول ثقل

معسكر الشرك من قريش إلى قبيلتي هوزان وثقيف، اللتين سارعتا لملء الفراغ، وقيادة المشركين لحرب الإسلام، فكانت غزوة حنين وحصار الطائف.

7- غزوة حنين:

وافقت أحداث هذه الغزوة السابع من شهر شوال من السنة الثامنة من هجرة المصطفى ﷺ. ودارت رحاها في وادي حُنين: وهو وادٍ من أودية مكة، يقع شرقيها بقرابة ثلاثين كيلو متر، يسمى اليوم وادي الشرائع. وكان عدد المسلمين الذين اجتمعوا في هذه المعركة اثني عشر ألفًا؛ عشرة آلاف من أصحابه ﷺ الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، وألفان من أهل مكة.

وعن سبب هذه الغزوة؛ هو، أنه لما فتح الله مكة على رسول الله ﷺ، مشت أشراف هوزان وثقيف بعضها إلى بعض، وقد توغرت صدورهم للنصر الذي آتاه الله رسوله والمؤمنين، فحشدوا حشودا كبيرة، وجمع أمرهم "مالك بن عوف النَّصْري" سيّد هوزان، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم. وكان مالك بن عوف رجلاً شجاعًا ومقدامًا، إلا أنه كان سقيم الرأي، وسيء المشورة؛ فقد خرج بقومه أجمعين، رجالاً ونساءً وأطفالاً وأموالاً؛ ليُشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه فلا يفرّ عنها. وقد اعترضه في موقفه هذا "دريد بن الصمّة" وكان فارسا مجربا محنكا، فسفَّه مالك رأيه، وركب رأسه، وأصرّ على المُضي في خطته، لا يثنيه عن ذلك شيء.

ولما انتهى خبر مالك وما عزم عليه رسول الله ﷺ، أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي للتعرف على أمرهم، فمكث فيهم يوما أو يومين، ثم عاد إلى المسلمين بخبرهم؛ فأخذ المسلمون أهبتهم واستعدوا لمواجهتهم. وخلال أيام تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال – وقد مضى على مقامه بمكة بعد الفتح خمس عشرة ليلة – ووصلوا في المساء إلى أرض المعركة، وقد استعمل النبيّ ﷺ "عتاب بن أسيد" على مكة أميرا على من تخلف من الناس.

وكان مالك بن عوف قد استبق زمام المبادرة وتوجه إلى حنين، وأدخل جيشه بالليل في مضائق من ذلك الوادي، وفرق أتباعه في الطرق والمداخل، وأصدر إليهم أمره، بأن يرشقوا المسلمين عند أول ظهور لهم، ثم يشدّوا عليهم شدة رجل واحد. وكان رسول الله ﷺ قد عبأ جيشه بالسَّحَر، وعقد الألوية والرايات، وفرّقها على الناس، وقبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم، استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بما كان قد دُبِّر لهم بليل، وبينما هم ينحطون على ذلك الوادي، إذا بالنبال تمطر عليهم من كل حدب وصوب، وإذا بكتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، وانشمرَ الناس راجعين، لا يلوي أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، وهو يقول: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك»، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار.

روى مسلم عن العباس رضي الله عنه هذا الموقف العصيب، فقال: فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، فقال ﷺ: «أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرة» (وكان رجلا صيّتا)

فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمرة؟ قال: فوالله، لكأَن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي، عَطْفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: «هذا حين حمي الوطيس»، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، قال: فذهبت أنظر، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلتُ أرى حدّهم كليلاً، وأمرهم مدبرًا. يعني قوتهم ضعيفة، وأمرهم في تراجع وهزيمة. وهذا الحدث وما رافقه من مجريات ووقائع، هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾[التوبة، 25-26].

وقد فرَّ مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه، والتجئوا إلى الطائف، وتحصّنوا بها، وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة، فأرسل رسول الله ﷺ على أثرهم فريقًا من الصحابة، حاصروهم، وقاتلوهم حتى حسموا الأمر معهم وقتلوا منهم ناس كثير. وبعدها أمر رسول الله ﷺ بالسّبي والغنائم تُجمع، فجُمع ذلك كلّه وحدروه إلى الجِعْرَانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري. ثم توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف، فحاصرها في حصونها المنيعة، وأخذت ثقيف تقذف المسلمين بالنّبال، وظل ﷺ محاصرا للطائف بضعة عشر يوما، وقيل بضعة وعشرين يوما، ثم بدا له أن يرتحل. روى عبد الله عمر، قال: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئا، قال: «إنا قافلون إن شاء الله». فثقل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتتحه، فقال لهم: «اغدوا على القتال» - أي، فقاتلوا إن شئتم – فغدوا، فأصابهم جراح، فقال: «إنا قافلون غدا إن شاء الله». فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ. وقال بعض الصحابة ادع على ثقيف، فعن جابر، قال: قالوا: يا رسول الله ﷺ أخرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم، قال: «اللهم اهد ثقيفا وائت بهم». وقد هدى الله ثقيفا بعد ذلك بقليل، فقد جاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة لإعلان إسلامهم.

وبعد رجوع رسول الله ﷺ من الطائف، قسّم السّبي والغنائم، وكان السَّبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، فاستأنى رسول الله ﷺ بالسّبي أن يقدم عليه وفْدهم، وبدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس وأجزل لهم في العطاء خاصة أشراف قريش وقادة العرب. وقدم وفد هوزان على النبيّ ﷺ، وهم أربعة عشر رجلا ورأسهم زهير بن صُرد، فسألوه أن يمُنّ عليهم بالسّبي، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، وقد خيّرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا، فمن كانت عنده منهم شيء فطابت نفسه أن يردّه، فقالوا: رضينا وسلمنا، فردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم.

ولمّا رأت الأنصار ما أعطى رسول الله ﷺ من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم شيء، حتى كثرت فيهم القَالَةُ، وقائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيّ من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة». فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة؛ فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاّلا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف اللّه بين قلوبكم» قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنُّ والفضل، قال: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقْتُم ولصُدِّقْتُم: أتيتْنا مُكَذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسَيْناك. أوَجدتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم فيَّ لَعَاعَة من الدنيا تَأَلَّفْتُ بها قوما ليُسْلموا، ووكَّلتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفسُ محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكتِ الأنصار شعبًا لسلكتُ شِعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكي القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْما وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا.

وكان رسول ﷺ انتهى إلى الجِعرانة ليلة الخميس لخمس خلون من ذي القعدة، فأقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة بقيت من ذي القعدة ليلا، فأحرم بعُمرة ودخل مكة فطاف وسعى وحلّق رأسه ورجع إلى الجعرانة من ليلته كبائت، ثم غدا ﷺ يوم الخميس فانصرف إلى المدينة، فسلك في وادي الجعرانة على سَرِف ثم الطريق إلى مرّ الظهران ثم إلى المدينة، وقدِمها في بقية ذي القعدة أو ذي الحجة. وكان قد استخلف على مكة عتّاب بن أَسيد، وترك معه معاذ بن جبل يفقّه النّاس ويعلمهم القرآن.

8- **غزوة تبوك(العُسرة):**

أقام رسول ﷺ، بالمدينة بعد عوده من الطائف ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم كانت غزوة تبوك، وسببها ما بلغ رسول الله ﷺ أن الرّوم تريد غزوه في بلاده، وقد جمع له هرقل ملكها جموعًا كثيرة بالشام، وأجلب معه لخم وجذام وغسّان ومن عنده من متنصرة العرب، وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء؛ فندب رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ والخروج لغزوهم، وذلك في زمان من عُسرة النّاس، وشدّة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار بالمدينة، والنّاس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قلّما يخرج في غزوة إلا كنَّى عنها وورَّى بغيرها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصده؛ ليعمي الأخبار على الأعداء، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينّها للناس؛ لبعد الشقة، وشدّة الزمان، وكثرة العدو؛ فدعى النّاس بالتّجهز، واستنفر لذلك أهل المدينة وما حولها، وأهل مكة وما جاورها، واستنفر الأعراب الضاربين في الجزيرة العربية ممن أسلموا.

والنبيّ ﷺ وهو في جَهازه ذلك، قال ذات يوم "للجَدِّ بن قيس" أحد بني سلمة: يا جدُّ، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، ائذن لي، ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عُجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: قد أذنت لك. ففيه نزلت: ﴿**ومنهم من يقول ائذن**

لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[التوبة، 49]. وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحرّ، فأنزل الله فيهم: ﴿**وقالوا لا تنفروا في الحرّ، قل نار جهنّم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون**﴾[التوبة، 81]. وقد عاتب الله جلّ وعز نبيّه ﷺ، لمّا أذن للمعذّرين من المنافقين الذين جاءوا يعتذرون له عن الخروج، وليس لهم عذر إلا النفاق وكراهية الجهاد، فقال تعالى:﴿**عفا الله عنك لما أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾ إلى قوله: ﴿**فهم في ريبهم يتردّدون**﴾[التوبة، 43-45].

وقد حثّ رسول الله ﷺ أهل الغنى على النفقة في سبيل الله، ووعد المُنفقين بالأجر العظيم، فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش تبوك، بحيث أنفق ألف دينار وثلاثمائة بعير ومائة فرس، فقال النبيّ ﷺ: «ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم». وهناك رجالاً من المسلمين سُمّوا "بالبكائين" وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، أتوا رسول الله ﷺ، فاستحملوا رسول الله، وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿**لا أجد ما أحملكم عليه؛ فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألاّ يجدوا ما ينفقون**﴾[التوبة، 92]. ولم يجد فقراء المسلمين إلا أن يتقدموا باليسير الذي يقدرون عليه على استحياء متعرضين لسخرية المنافقين، فقد جاء أبو خيثمة الأنصاري بصاع تمر فَلمزَه المنافقون، وجاء أبو عقيل بنصف صاع تمر، فقال المنافقون: إن الله لغنيّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿**الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهدهم**﴾[التوبة، 79]، فهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من فقر الفقراء.

وقد ابتنى المنافقون مسجدا قريب من مسجد قباء قبيل غزوة تبوك، وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتّوسعة على المسلمين؛ وقد أرادوا أن يفرقوا اجتماع المؤمنين. وجاؤوا وسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي فيصلي في مسجدهم؛ ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته تمويها على النّاس، فنهاه القرآن عن ذلك وسماه ضرارا لمسجد قباء، وكفرا وتفريقا بين الناس، قال تعالى: ﴿**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين**﴾[التوبة، 107]. وفي طريق العودة من تبوك دعا النبيّ ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه»؛ فذهبا إليه فحرّقاه وهدّماه.

وقد تخلف معظم المنافقين عن الغزوة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، وخرج بعضهم الآخر مع الجيش يقتنصون الفرص للكيد والإرجاف. وتخلف أيضا عدد يسير من الصحابة رضوان الله عليهم من أصحاب الأعذار، سوى ثلاثة لم يكن لهم عذر في شهود هذه الغزوة، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. ومن الصحابة من تخلف عن النبيّ، لكنه تدارك أمره فلحق بالرسول ﷺ في الطريق، كعُمير بن وهب الجمحي، وأبو خيثمة السالمي الأنصاري، وكذلك وأبو ذر الغفاري.

وقد انتظر أبو ذر الغفاري بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم لحق رسول الله ﷺ ماشيا، ونزل رسول الله في بعض منازله، ونظروا فإذا رجل ماش على الطريق، فقال رسول ﷺ: «كن أبا ذر»، فتأمله القوم فإذا هو أبو ذر،

فقال رسول ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده». صدق رسول الله، فعن محمد بن كعب القرظي قال: لما نفى عثمان أبا ذرّ الغفاري نزل بالرّبَذَة، فأصابه بها قَدَرُه سنة 32هـ، ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهم أن غسّلاني وكفّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه، فأقبل عبد الله بن مسعود ورهطٌ من أهل العراق عُمّاراً، فلم يرُعهم إلا بجنازة الطريق قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه؛ فاستهلّ عبد الله بن مسعود يبكي، ويقول: صدق رسول، تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروْه.

ثم سار الرسول ﷺ قاصدا تبوك، وأعطى اللواء الأعظم لأبي بكر، ووزّع الرايات: فأعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين، وأسيد بن حضير راية الأوس، والحباب بن المنذر راية الخزرج. في جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، والخيل عشرة آلاف فرس، واستخلف على المدينة سِباع بن عُرفطة أو محمد بن مَسلمة – وهو الثابت عند ابن سعد –، وعلى أهله عليّ بن أبي طالب. وسار الجيش في جهد شديد من قلّة الظّهر، حتى كان الرجلان والثلاثة يعتقبون على بعير واحد، ومن قلة المؤونة حتى كان الرجلان والثلاثة يقتسمون التمرة فيما بينهم، حتى استأذنوا رسول الله في نحر رواحلهم، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: «افعلوا»، فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلّ الظّهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فدعا بنِطْع(بساط)، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوها، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة».

ومضى لوجهه يسير بأصحابه حتى قدم تبوك، فأقام بها عشرين ليلة يصلي ركعتين، وهرقل يومئذ بحمص. وأتى يوحنّا بن رُؤبة صاحب أيْلة، فصالحه على الجزية، وكتب له كتابا، فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار، وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب، وصالح أهل جرباء على الجزية، وصالح أهل مَقْنا على ربع ثمارهم. وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانيا من كِندة، فقبضت عليه خيل رسول ﷺ، وأخذوه فأتوه به، فحقن ﷺ له دمه وصالحه على الجِزية، وخلىّ سبيله. ثم انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ولم يلق كيدا، وقدم في شهر رمضان سنة تسع، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للنّاس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وأرجأ كعب بن مالك وصاحبيْه حتى نزلت توبتهم.

وجاء كعب بن مالك وقد سبقه صاحبيْه هلال بن أمية ومُرارة بن الربيع، وقد أقرّ الثلاثة بأنّه لا عذر في تخلفهم عن الغزوة، ولم يرضوا أن يضيفوا إلى ذنب التخلف ذنبا جديدا هو الكذب، فنهى الرسول ﷺ المسلمين عن الكلام معهم،

فاجتنبهم الناس خمسين ليلة، وأُمرت نساؤهم باعتزالهم، فذهبن عند أهلهن، إلا زوجة هلال إذ كان شيخا كبيرا؛ فبقيت لخدمته فقط بإذن من النبيّ ﷺ. وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، وحاول ملك الغساسنة استغلال الموقف فراسل كعب بن مالك ليلحق به، لكن كعب أحرق الرسالة، وقال: إنّها زيادة في امتحانه. واستمرت المقاطعة حتى نزل القرآن يعلن توبة الله عليهم، فقال عز وجل: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التواب الرحيم**﴾[التوبة، 118]. فقال بعدما أن نزلت توبتهم: إن من توبتي أني أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبيّ ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك».

وفي تبوك نزلت آيات كثيرة من سورة براءة(التوبة)، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج، وهو في السفر، وبعض آخر بعد الرجوع إلى المدينة، وقد اشتملت على ذكر: ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين، إلى غير ذلك من الأمور. وبعد مرجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، مات رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدا**﴾[التوبة، 84].

9- حجّة أبي بكر الصدّيق بالنّاس:

لم يحج الرسول ﷺ عام فتح مكة، بل اعتمر ورجع إلى المدينة، وقد حجّ المشركون والمسلمون معا في عام 8هـ، فلما كان العام التاسع، أمّر أبا بكر على الحجّ، فخرج في ذي الحجّة إلى مكة في ثلاثمائة من الصحابة ومعهم عشرون بدنة، وساق أبو بكر خمس بدنات. ولما خرج أبو بكر بالنّاس من المدينة نزلت بضعا وثلاثين آية من صدر سورة براءة، فأرسل رسول الله ﷺ على بن أبي طالب؛ ليعلنها على النّاس في موسم الحج يوم النّحر، ولما كان أبو بكر بالعَرْج لحِق به عليّ على ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فلما رأى الصدّيق عليّا سأله: أأمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، فمضيا؛ وأبو بكر أميرا على الحجّ، وعليّ يُبلّغ صدر سورة براءة، ويساعده عدد من الصحابة في النّداء منهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو الدوسي، وقد ذكر عليّ بن أبي طالب أنه بُعث بأربع: "لا يدخل الجنّة إلاّ نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد ﷺ فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربع أشهر". ورُوِي عن أبي هريرة وقد شهد هذه الحجة، قال: بعثني أبو بكر، فيمن يؤذن يوم النّحر بمنى: "لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النّحر".

وقد نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد، الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يُصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين النّاس من أهل الشرك، فانتقض ذلك بسورة براءة. والخاصُّ بين ذلك من عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل العرب إلى آجال مسمَّاة؛ ولذلك قال تعالى:

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا﴾[التوبة، 4]. ذكر معناه ابن إسحاق وابن هشام، وذكر تمام الآي من سورة براءة وتفسيرها.

10 – عام الوفود:

سُمّي العام التاسع بعام الوفود، حيث ابتدأت وفود القبائل العربية تقدم من أنحاء الجزيرة العربية معلنة دخولها في الإسلام منذ رجوع النبيّ ﷺ من الجعرانة في أواخر سنة ثمان، وقد بلغ مجموع ما ذكرته المصادر أكثر من ستين وفدا. والوفود التي ساق ابن إسحاق وابن هشام أخبارها هي: وفد تميم، ووفد بني عامر، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد طيء، ووفد بني زبيد، ووفد كندة، ووفد ملوك حمير، ووفد بني الحارث بن كعب، ووفد همدان، ووفد عدي بن حاتم، ووفد فروة بن مسيك المرادي، ووفد صرد بن عبد الله الأزدي، ووفد فروة بن عمر الجذامي.

حجة الوداع ووفاته صلى الله عليه وسلم

1 – حجّة الوداع(حجّة الإسلام):

في العام العاشر أعلن النبيّ ﷺ عزمه على الحج، وهي المرّة الوحيدة التي حجّ فيها بعد الهجرة إلى المدينة، فتقاطر النّاس من أرجاء الجزيرة للحجّ معه، استعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي وقيل سباع بن عرفطة. وخرج منها مغتسلا مُتدهّنا مترجّلا متجرّدا في ثوبين صُحاريّين إزار ورداء، وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، فصلى الظّهر بذي الحُليفة ركعتين وأخرج معه نساءه كلّهن في الهوادج، وأشعر هديه وقلّده ثم ركب ناقته، فلما استوى عليها بالبيداء أحرم من يومه ذلك، وساق معه مائة بدنة. واختلف الرواة، فأهل المدينة يرون أنه أهلّ بالحج مفردا، ويروي غيرهم أنه قرن مع حجّته عمرة، وروى بعضهم أنه دخل مكة متمتعا بعمرة ثم أضاف إليه حجة.

ودخل النبيّ ﷺ مكة من أعلاها من طريق كداء، حتى انتهى إلى باب شيبة، فلما رأى البيت قال: «اللّهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزد من عظّمة ممن حجّه واعتمره تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وبرا». ثم مضى رسول الله ﷺ في الحجّ، فعلّم النّاس مناسكهم وبيّن لهم سنن حجّهم، فعن جابر قال: رأيت النبيّ ﷺ يرمي على راحلته يوم النّحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعليّ لا أحجّ بعد حجّتي هذه». وما أن أتى رسول الله ﷺ عرفة، فوجد القبّة قد ضُربت له بنَمِرة، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون، أو أربعة وأربعون ألفا من النّاس، وقام فيهم خطيبا، وألقى هذه الخطبة الجامعة، فقال ﷺ:

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه،

فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبّابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات. وبعد أن فرغ النبيّ ﷺ من إلقاء الخطبة، نزل عليه قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[المائدة، 3].

وقد ألقى خطبا في منى ذكر في إحداها: عن جرير، قال: قال النبيّ ﷺ في حجة الوداع: «استنصت الناس» ثم قال: «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض». ولما قضى مناسكه، حثّ الركاب إلى المدينة المطهرة؛ فكانت مدّة إقامته ﷺ بمكة عشرة أيّام، فلما أتى ذا الحُليفة بات بها، ثم واصل سيره ولمّا رأى المدينة كبّر ثلاث مرات، كعادته ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حجّ أو عمرة يُكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثم دخل ﷺ المدينة نهاراً، من طريق المُعَرَّس – هو مسجد ذي الحليفة – والحمد لله وحده.

وعندما قفل النبيّ ﷺ من حجّة الوداع، ومضت بقية ذي الحجة، والمحرم وصفر من العام القابل(11هـ)، وما زال يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم، ووجد عليهم وجْدا شديدا، فبدأ بتجهيز جيش إلى الشام يوم الاثنين لأربع بقين من صفر 11هـ، وأمّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين، فتجهّز النّاس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر. وكان أسامة ابن ثماني عشرة سنة، وتكلّم البعض في تأميره وهو مولى صغير السّن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل رسول الله ﷺ طعنهم في إمارة أسامة وأوصى به خيرا، فقد روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال، قال ﷺ: «أن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب النّاس إليّ بعده». وكان أسامة قد أخذ اللواء الذي عقده الرسول ﷺ بيده وعسكر بالجُرف، كان عِداد جيشه حوالي ثلاثة آلاف، وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ.

2- النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى:

لقد ألم المرض برسول الله ﷺ، بعد عودته من حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر، في اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة 11هـ، وجميع أيام مرضه كانت 13 إلى 14 يوما، وكان بدء شكواه في بيت زوجته ميمونة، وقيل في بيت زينب بنت جحش. ولمّا اشتد مرضه استأذن زوجاته أن يُمرَّض في بيت عائشة، فأذن له؛ فخرج ﷺ تخط رجلاه في الأرض، بين الفضل بن العبّاس بن عبد المطلب وعلِيّ بن أبي طالب، حتى دخل بيت عائشة، وأمر أن «هريقوا عليّ من سبع قرب، لم تحلل أوكيتهن، لعلِّيَ أعهد إلى النّاس» وأُجلس في مخضب لحفصة، زوج النبيّ ﷺ، ثم طفقنا – كما تقول عائشة – نصب عليه الماء، حتى طفق يشير إلينا: «أن قد فعلتن»، ثم خرج إلى النّاس عاصبا رأسه، فصلى بهم وخطبهم، وجلس على

المنبر، وأول ما تكلم به أن صلّى على أصحاب أُحد واستغفر لهم ثم قال: «إن عبدا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال النّاس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال رسول الله ﷺ: «إن من أمنّ النّاس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتّخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر».

ولمّا اشتد الوجع برسول الله ﷺ، وثقل عليه مرضه، وتعذّر عليه الخروج للصلاة، أمر أبا بكر أن يصلّي بالنّاس، فيُروى عن عائشة، أنها قالت: لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال: «مروا أبا بكر فليصل بالنّاس» قالت: فقلت يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه فلو أمرت غير أبي بكر، قالت: والله، ما بي إلا كراهية أن يتشاءم النّاس، بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ، قالت: فراجعته مرّتين أو ثلاثا، فقال: «ليصلّ بالنّاس أبو بكر فإنّكن صواحب يوسف». فصلّى بهم سبع عشرة صلاة، أولاها عشاء ليلة الجمعة وآخرها صبح يوم الاثنين.

وكشف في صلاة الفجر يوم وفاته ستر حجرة عائشة، ونظر إلى المسلمين وهم في صفوف الصلاة؛ يُروى عن أنس بن مالك قوله: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر يصلّي بهم، لم يفاجئهم إلا رسول الله ﷺ قد «كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسّم يضحك»، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصفّ، وظنّ أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده ﷺ: «أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر». ولمّا ارتفع الضحى، دعا النبيّ ﷺ فاطمة فسارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها، فسارَّها بشيء فضحكت، فسأُلتُ عن ذلك، فقالت: «سارّني النبيّ ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيتُ، ثم سارّني فأخبرني أنّي أوّل أهله يتبعه فضحكت».

كان رسول الله ﷺ، عندما حضره الموت مستندا إلى صدر عائشة رضي الله عنها، إذ تقول: إن من نعم الله عليّ، أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته: دخل عليّ عبد الرحمن(أخيها)، وبيده السّواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحبّ السّواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فتناولته، فاشتدّ عليه، وقلت: أُلينّه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فلينته، فأمره، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» أو «اللّهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالت يده ﷺ. كان ذلك في يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 11هـ، وقد تم ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام. وكان آخر ما تكلّم به ﷺ: «لا يبقى بجزيرة العرب دينان» وقوله: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»، حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يفصح بها لسانه.

وانتشر خبر وفاته ﷺ في النّاس، فقام عمر بن الخطاب، وقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربّه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع

إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، وأخذ رضي الله عنه يقول ويكرّر: لم يمُت؛ وكان يتوعّد الناس بالقتل في ذلك(من يقول مات).

ولما بلغ الخبر الصدّيق، وهو عند بنت خارجة – إحدى زوجتيْه – بمسكنه بالسُّنْح؛ حتّى نزل ودخل المسجد وعُمر يُكلّم النّاس، ثم دخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبّله وبكى، وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيّا وميّتا، ثم خرج فقال: أيّها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، وذكّر بقوله تعالى: ﴿**إنك ميّت وإنهم ميّتون**﴾[الزمر، 30]، وقال: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين**﴾[آل عمران، 144]، فنشج الناس يبكون؛ وكأنهم لم يسمعوا الآية إلا تلك الساعة، قال عمر: والله ما إن سمعت أبا بكر تلاها؛ فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني قدماي؛ وعرفت أن رسول ﷺ قد مات.

وفي يوم الثلاثاء غسّلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان الذي غسّله عليّ والعباس وابنيه الفضل وقُثم، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ. أسند عليّ رسول الله إلى صدره والعباس وابنيه الفضل وقُثم معه يقلّبونه، وكان أسامة وشقران يصُبّان الماء عليه وعليه قميصه، يدلّكه من ورائه ولا يفضي بيده إلى جلده ﷺ. غُسّل النبيّ ﷺ ثلاثَ غسلات بماء وسدر، والماء من بئر يقال لها الغَرْس لسعد بن خَيْثمة بقباء، كان يشرب منها ﷺ. وولى عليّ سَفِلَته، والتمس من النبيّ ﷺ عند غسله ما يُلتمس من الميِّت، فلم يجد شيئا، فقال: بأبي أنت وأمي طِبْت حيّـا وميّتـا، وكفّنوه ﷺ في ثلاثة أثواب يمانية بيض سحولية من الكُرْسُف(القطن) ليس في كفنه قميص ولا عمامة، أدرج فيهن إدراجا.

ولما فرغوا من جهازه ﷺ، وُضع على سريره في بيته، ثم دخل النّاس عليه ﷺ زُمراً زمراً أي جماعات متتابعين يصلّون عليه ولم يؤمهم أحد، دخل الرجال فصلّوا عليه ثم النّساء ثم الصبيان. بعد ذلك تحدّثوا في مكان دفنه، واختلفوا في ذلك، قال بعضهم: ادفنوه مع أصحابه في البقيع، وقال آخر في مسجده، قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قَبض الله نبيّا إلا في الموضع الذي يُحبّ أن يدفن فيه» ادفنوه في موضع فراشه؛ فرُفع فراش النبيّ الذي توفي عليه، ثم حُفر له تحته، وكان المباشر للحفر أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه، حفر لحدا في موضع فراشه حيث قُبض، ونزل في قبره عمّه العباس وعليّ والفضل وقُثم وشقران رضي الله عنهم، بُسط تحته قطيفة حمراء كان يلبسها، قال شقران: لا يلبسها أحدٌ بعدك أبدا، وكان الدّفن في آخر ليلة الأربعاء، فصلى الله عليه وسلم في الأولين والآخرين. مات رسول الله ﷺ، وما ترك ديناراً، ولا درهمـاً، ولا عبدا، ولا أمة، إلا بغلة بيضاء كان يركبها، وسلاحه، وأرضـاً جعلها لابن السبيل صدقة.